قصص

أحمد الدريني

قميص تكويه امرأتان

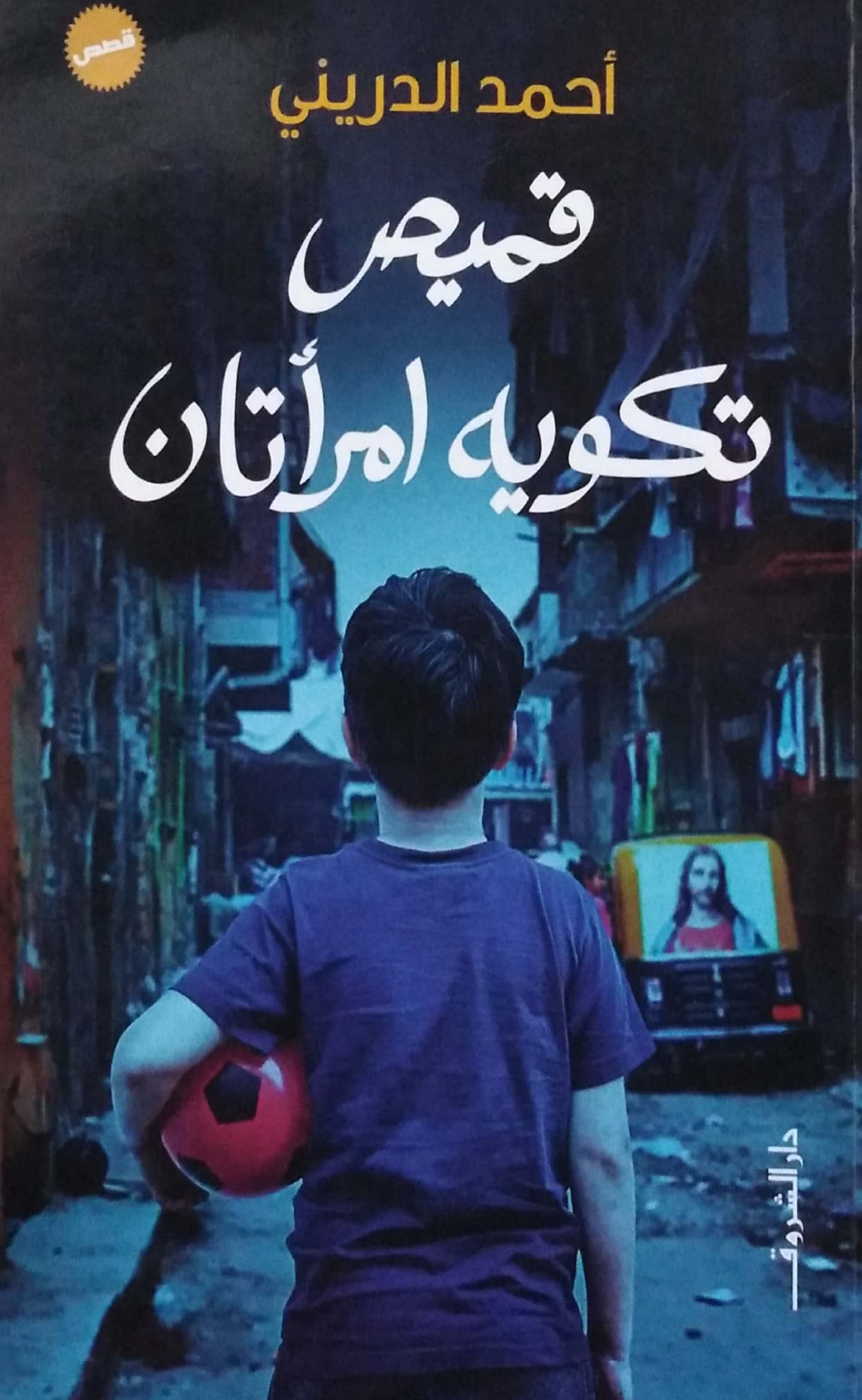

دار الشروق

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

قميص
تكويه امرأتان

قميص تكويه امرأتان
أحمد الدريني

الطبعة الأولى ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: أدب / قصص

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٦٠٥٢/ ٢٠١٨
ISBN 978-977-09-3540-8

الغلاف : أحمد مراد

الدريني، أحمد،
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٨
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥٤٠٨
١- قصص عربية
أ. العنوان

قميص تكويه امرأتان/ أحمد الدريني
١٠٦ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ٢٦٠٥٢/ ٢٠١٨

٨١٣

أحمد الدريني

قميص تكويه امرأتان

دار الشروق

إهداء

إلى ابني الحسن وما يذكرني به من جموح أبي، وابنتي خديجة وما تذكرني به من قوة أمي، وزوجتي هبة وما تتركه في نفسي من بهجة أخي مازن وأختي أميرة..

لولاكم ما التأم شتات نفسي.

المحتويات

درب النصارى..... ٩

قميص تكويه امرأتان..... ٢١

مدمن الجنائز..... ٣٢

مقاتل السيستم..... ٣٨

نصاب النساء..... ٥٠

أبو مصعب.. ليث السلفية..... ٥٨

حدث وفاة سيدة عادية..... ٦٢

قبل الوفاة بقليل..... ٦٤

شلة المسجد المريبة..... ٦٦

آذار..... ٧٥

درب النصارى

(١)

أتذكر تاج الشوك على رأس المسيح في الصورة المعلقة خلفها. كانت واقعة في المدى البصري الممتد بيني وبين الصورة بحيث يمكن بقليل من التعديل أن يبدو تاج الشوك فوق رأسها هي.

كلما شردت أثناء الدرس، تسرب إلى حواسي يقين دامغ بأن تاج الشوك يخترق عظام جمجمتها هي.

تجرجرني من شرودي المتكرر لتسألني عن شيء في درس الجغرافيا الأخير، أجاهد كي أتذكره وأستدعيه من أعماقي، فتفجؤني بأن الإجابة صحيحة وأننا على هذا المستوى مؤهلون للفوز في مسابقة أوائل الطلبة التي كنت واحدًا من خمسة يمثلون المدرسة الابتدائية فيها.

استضافتنا في بيتها في سلسلة دروس إضافية لشحذ أذهاننا قبل المعركة.

مدرسة مسيحية مُسنة، من الطراز الذي تحس معه أنه تلقى تربيته من السيد المسيح مباشرة.

عطاء وتفانٍ ونكران ذات.

كلما أجبت سؤالا على نحو يرضيها ـ ومعاييرها في الإجابة كاثوليكية صارمة بالمناسبة ـ كنت أتوجه من تلقاء نفسي ببصري للناحية اليمنى من الغرفة حيث صورة مار جرجس الشهيرة وهو يطعن التنين.

كل إجابة صحيحة كانت تجعلني بيني وبين نفسي مار جرجس، وكل سؤال مستعصٍ هو التنين الذي تردى تحت حربة الفارس المدرع على صهوة الفرس الأبيض.

صور القديسين التي تملأ جدران بيتها، جعلت من دروسها جميعًا تنويعة ما في نفسي الطفلة ـ بكل إسقاطاتها الغضة ـ بين العلم وبين المسيحية.

تحولت كوابيسي من الرسوب إلى الصلب.

هل لو أخفقت يوما ما، فسيخرج أبطال الأيقونات والصور ليأخذوني لهذا العالم الملآن بالآلام؟

صليب ضخم ومسامير تخترق الأيـدي وتيجان شوك.. وعلامات معاناة قاهرة؟

كلما تخطينا فريقا مدرسيًّا منافسًا في المسابقة، زادت دروسنا المجانية في بيتها الكريم، كمًّا وكيفًا.

حتى إن عقلي أضفى ـ لاشعوريًّا ـ طابعًا مسيحيًّا على كل شيء.

فغابات السافانا في الدراسات الاجتماعية.. ذات صلة وثيقة بالزعفة المعلقة على الحائط.

ومريم العذراء والنور يفيض حواليها، تبدو كما لو كانت تواسينا بحنان في حربنا الطفلة مع المدارس الأخرى.

ونظرة الحزن الرهيف في عيني القس عبد المسيح المناهري ما هي إلا تعاطف معي على الضغط النفسي الذي وضعتنا فيه المسابقة.

توالت الدروس وتعاقبت الانتصارات، إلى أن حانت الغدرة.

وجه مسئولو الإدارة التعليمية دفة المواجهة الفاصلة بيننا وبين إحدى المدارس بحيث يفوز الآخرون، بدا الفساد والانحياز فجًّا.

انهزمنا.. بكينا.

شعرت أن يهوذا سلمنا.. باعنا للرومان.

صلبتنا الإدارة التعليمية فوق الجلجثة، لم تكن تمرر فوزا عابرًا لمدرسة على حساب أخرى.. لقد صدعت في نفوسنا شيئًا ليس ليجبر الدهرُ كسره أبدا.

بدت لي أستاذتنا يومها وهي مقهورة لظلمنا، وقد انغرس تاج الشوك على رأسها حقًّا لا مجازًا.

(٢)

في عودتي كسيرًا للمنزل يومها، مررت بجوار حارة النصارى التي لا تبعد كثيرا عن بيتي.

كنا نرمق الحارة صغارًا بانبهار مكتوم، ونختلس إليها النظر وننسج حولها وحول سكانها الأساطير.

بطبيعة تقارب المباني فيها، وبموجب عدد الأدوار، وبسبب كل شيء في هندسة التكوين وطبيعة المباني، كانت الحارة رطبة لا تكاد تتسلل إليها الشمس إلا قليلا.

ومن ثم هيمنت عليها عتمةٌ ما، ثم لم تكسح الشمس بشعاعها القاهر اليومي بقايا روائح الحياة من الأمس.. من رائحة طعام وقمامة وخلافه.

بدت الحارة كما لو كانت مستعمرة يسكنها أناسٌ غرباء الأطوار، غرباء الأسماء، مكنفئون على عالمهم السري الذي يلهب خيالنا نحن الصغار، في حين كان كبار المنطقة من التجار والصنايعية وأصحاب الورش يتعاملون معهم بعادية.

كنت أحس برغبة عارمة في الدخول إلى هذه الحارة الملغزة، كما لو كان بين جدران بيوتها نص الإجابة الآخر المخبوء بعد أن أخذ العلم بداخلي روحًا مسيحيةً صرفة.

وبينما نتبادل تسديد الكرة ذات يوم في مباراة شوارع حامية الوطيس، بُعيد المغرب، دخلت الكرة إلى حارة الألغاز.

تسمرنا، فلم يكن أحدنا يجرؤ على الدخول إلى هذه البقعة من الأرض. فقد كان الخيال يستبد بنا فنتصور مصائر مفزعة لمن يدخل هذه الحارة.

كأن يخطفه القساوسة السريون الذين يتلبدون مبانيها، أو أن تنزل على الداخل تعويذة ما لا تجعله كما كان سابقًا، لا نعرف ما الذي سيتغير لكن أحدنا قال إن الذي يدخل الحارة لن يخرج منها إلا واسمه حنا!

من منا يجرؤ على المغامرة بهويته أو باسمه؟ من يواجه المصير الغامض وسط الحارة الأكثر ظلمة في المنطقة والأكثر رطوبة في الكوكب؟

من يجرؤ على الاقتراب من نوافذ الأدوار الأرضية التي تتسلل منها الترانيم والعظات المسيحية التي تهدر بها شرائط الكاسيت يوميًّا كأنما في محاولة إيجاد توازن ردع مع الهجوم الكاسح الذي يشنه الجيران المتاخمون للحارة من المسلمين والذين ـ كإجراء استباقي ـ يجعلون بينهم وبين جيرانهم نصيبًا من القرآن يصدح من إذاعة القرآن الكريم بلا انقطاع، كأنه ستار الحماية بينهم وبين المجهول.

من يجرؤ؟

وبينما نتبادل النظر إلى بعضنا البعض، انقطع النور بصورة مفاجئة عن المربع السكني بأكمله.

ساد الهلع لثوانٍ صفوفنا، حتى خرج أصحاب المحلات بالكشافات الاحتياطية وأناروا الشارع قدر المستطاع، بينما خرج بعض السكان بالشموع للبلكونات.

تعقدت ورطتنا أضعافا مضاعفة، فمن يجرؤ على الدخول في الظلام الذي بالكاد تستبين من خلاله ظلالًا خافتة لا تستدل منها على شيء، إلا اللهم ما تمليه عليك خيالاتك المفزوعة وإسقاطاتك النفسية المرتاعة؟

لسبب ما، وحين تتفاقم حصتنا من الحماقة نظن أننا المختارون

للمهام الجليلة وأننا الاستثنائيون الذين لأجلهم تتشكل الاستثناءات القدرية على ضفاف خطاهم.

اعتبرت نفسي خبيرًا في شئون المسيحية من صور وأقانيم وترانيم وأيقونات، وأعلنت وسط ذهول أقراني أنني سأتسلل للداخل كي أعود بالكرة.

بطولة وأيما بطولة سيتحاكى عنها الرفاق لخمس إجازات صيفية قادمة؟

توجهت تلقاء الحارة وأحسب أن نبض قلبي مسموعٌ في الخافقين، والرعب يزحف من مفاصلي لأوصالي كأنه رعدة تيار كهربائي عجولةٌ مستنفرة.

ما إن دخلت وقد أطبقت الظلمة فكيها تقريبا على نحو تام، حتى بوغتت وبوغت الرفاق بالكرة تخرج من الحارة، كأنما سددتها ساقٌ من المجهول السحيق!

كنت بالداخل وسمعت صوت الكرة وهي تتحرك وتمر بداخلي وتحتك وتتقافز على الأرض ثم سمعت صياح الرفاق في الخارج، الذين انشغلوا بعدها بثوانٍ معدودة بالسؤال عني، ولماذا لم أعد.

تسمرت مكاني حين سدد المجهول الكرة بالخارج. ثم تذكرت درس الدين المسيحي الذي تلصصت عليه في «كتاب الدين المسيحي» لأحد زملاء الدراسة، والذي كان يتحدث عن مصير زوجة لوط التي تحولت إلى عمود ملح حين تلكأت في الخروج من سدوم الملعونة.

أحسست أنني سأتحول لعمود من ملح وحين يتلمس الرفاق جسدي سأنهار متحولًا إلى فتات منثور من الملح المغدور.

ثوانٍ كأنها الدهر.

ثم بدا طيف أسود يتحرك في الظلام.. خطوات أقدامه تتجه نحوي.. ثم ينقدح أمامه ضوء عود كبريت.. فتضاعفت الرهبة.

تجمدت مكاني أضعاف ما كان تجمدي الأول.

واقترب مني الطيف الأسود يتقدمه ضوء النار الهين.. خطواته كأنها بشرية، اقترابه مني مع مضي الثواني بدا مطمئنًا بأكثر مما بدا مثيرا للفزع.

«متخافش يا حبيبي.. هطلعك من الضلمة دي».. اقترب الطيف فإذا هو قسٌّ من القساوسة الذين يتناوبون على الحارة وسكانها.

وبينما يسحبني في يده بعطف بالغ، عاد التيار الكهربائي مرة أخرى.. فرآني الرفاق خارجًا من الحارة في يد القس.

هرعوا من أماكنهم وجروا إلى كل زاوية وناحية.

أقسمت لهم فيما بعد بالذي حصل، لكنهم ظلوا على يقين صلد بأنني تبدلت في الداخل وانسحرت بسحر ما، وإلا كيف أخرج مع قس من الظلام بعد دقيقة من البحث عن كرة في حارة معتمة؟

(٣)

درست في الإعدادي والثانوي بمدارس من تلك التي تنتقي

الطلبة المتفوقين وتعزلهم في فصول دراسية خاصة، ثم تشرع في انتقاء مدرسين مخضرمين لتلقينهم المواد الدراسية،بذات القداسة التي تليق برهبان المعابد البوذية.

في هذه الفصول يعلِّمونك الكثير (أنت متفوق، ينبغي أن تحفظ سريعا، أن تفهم من المرة الأولى، أن تجتهد منفردا، أن تباغت مدرسيك بالجديد، أن فقدان نصف درجة من مجمل الدرجات يعني كارثة كبيرة لا يمكن تداركها، أنك في مجتمع نخبوي لو أهملت في الاعتناء بحيثيات نخبويتك فسيذهبون بك لأقرب فصل من فصول «العاديين» ويجردونك من كل الميزات المعنوية التي تحصل عليها).

وتكتسب مع الوقت عددا من المهارات: الدقة، السرعة، الإصرار، القدرة على تلمس مكامن ضعفك، الرغبة في تنمية الذات، مراقبة زملاء الفصل لأنهم جميعا منافسون محتملون،الاستفادة من تكنيكات الآخرين في الاستذكار، القدرة على المعيشة تحت ضغط، احتمال احتقارالآخرين لك لأنك فقدت درجة ونصفًا في امتحان الشهر، بينما حصلوا جميعا على الدرجة النهائية.

كان معظم زملائي في هذه الفصول متحدرين من مدارس مسيحية صارمة، أتذكر أن معظمهم درسوا المرحلة الابتدائية في مدرسة تدعى «البطريركية»!

لذا لم تكن الأجواء الكاثوليكية المتشددة المسيطرة على المشهد بالشيء المستغرب ولا الخارج على السياق، فكله نسيج

واحد يكمل بعضه بعضا، نظام دراسي استعلائي وطلاب كاثوليكيو الروح.

لم يكن ينقصنا سوى ممارسة بعض طقوس التطبير (أو جلد الذات بالكرابيج المعدنية)؛ كي تكتمل منظومة الشعور المُلح بالذنب التي تترسخ فيك مع الوقت.

فمهما ذاكرت ومهما أنجزت من كتب خارجية ومهما حفظت، فلا بد أن هناك شيئًا غائبًا عنك كان لابد أن تفعله..وهكذا تترسخ بداخلك نزعة من احتقار الذات لا يمكن أن يداويها شيء، دعك من أنك تحصد الدرجات النهائية، فالهدف هنا يتنحى جانبا لصالح فلسفة جلد الذات وروعة الشعور بالضآلة الكونية.

ومن ناحيتهم، كان المدرسون، يتحققون نوعا ما ويشعرون بالانتشاء،بقهرنا نحن الآلهة الصغيرة المتفوقة، الذين سرعان ما سيتم تفريغهم في كليات الطب والهندسة بفضل علوم أساتذتهم الجمة وأساليبهم التدريسية المذهلة.

كانت المدرسة في ذلك الوقت تبعد عن منزلي ساعة تقريبا، وكانت مشقة الاستيقاظ المبكر الزائد ثم مشقة العودة بعد نهاية يوم أقرب لجدول إنهاك نفسي ممنهج ومنظم، كل هذا كان يزيد أوار الاضطراب بداخلي.

كنت خجولا حينها جدًّا ـ ومازلت بعض الشيء لا أنكر ـ لدرجة أنني استحييت أن أقول للترزي أريد بنطالا ضيقا لا واسعا، فكان أن فصل الترزي لي بنطالي مدرسة واسعين،كل واحد منهما أقرب

لبناطيل بائعي العرقسوس؛ لذا كان زيي واسعا كالرهبان وحقيبتي محزومة على ظهري كالجنود، وشعري قصيرًا كالرهبان الجنود، بينما قلبي كسير لا يجرؤ أن يحكي لأحد عمق الورطة.

في هذا الجحيم الذي لا يتسع لانسيابية الموهبة ولا لترف الخروج على النص،تضطر اضطرارا لخلق عالمك الخاص: كالقدرة المدهشة ـ للأساتذة والطلاب ـ على تملك ناصية اللغة العربية نحوا وتعبيرا، أو امتلاك آفاق معرفية في الفيزياء والكيمياء تتسع لما هو أكبر من نطاق الكتاب المدرسي، أو كمحاولة ربط الرياضيات بالفلسفة.

لقد حولت الضغط النفسي الخانق، لعالمي الخاص، كنت أريد أن أغوص في الكون،لا أن أسقط في مستنقع امتحان الشهر البغيض.

أما زملائي فقد كان معظمهم متخثري الجلد، يذاكرون كالماكينات، ويأكلون كالثيران، ولا يبكون أبدا..كان شيء في جبلتهم الأولى قد صار أكثر دربة وحنكة وقدرة على التعامل مع مثل هذه الأجواء التي بددت كيان طفل وديع، لا يجيد إلا الرسم والكتابة، وإلقاء النكات على مسمع الأب والأم لامتصاص آلامهما من الحياة.

في حصص الألعاب، كان هؤلاء الزملاء جميعا ـ ولاد الإيه ـ محترفي كرة قدم،كانوا كأنصاف آلهة أمامي، إنهم يستذكرون كثيرا، ويلعبون كثيرا، ويفعلون كل شيء باكتمال مدهش.. (ليتني كنت ذئبا ضالّا في الصحراء ولم أكُ هنا).

اضطروني اضطرارا للتحايل على هذا الواقع، كونت فريقا لكرة القدم من كل أصدقائي (أنصاف المكسورين نفسيًّا): مكلبظهم وقصيرهم والذي لا يكاد يرى.

ومع هذا الفريق الكارتوني، بدأب وإصرار لا يقبلان التراجع، أخذنا نحقق الانتصارات عليهم وعلى اكتمالهم المستفز.

وكنت أجد الثغرات كي أتحقق، ما بين سطور إخفاقهم..فلا كلهم كان يجيد كتابة موضوع تعبير جميل، ولا كلهم كان يمكنه أن يربط أشياء مختلفة في سياق واحد.

وتحولت مع الوقت إلى الطالب الهادئ، الذي يمكن أن يمسك بزمام الأمور أمام الموجهين ومفتشي الوزارة، ويمكن أن يقف ويرتجل موضوع تعبير كأنه الإسكندر الأكبر، أو يمكنه أن يتحدث أمام موجه العلوم عن نظريات نشأة الكون، رابطا بينها وبين محاولات الفلاسفة الأوائل في فهم الحياة.. كنت أقرب لأيقونة أخرى يحاولون تصنيمها على مقاساتهم، لكنها كانت كسيرة، مستنفرة كذات نرجسية مجروحة، تريد أن تثبت للكون أن بداخلها شيئًا جميلًا، خارج مقاييس الدرجات والشهادات والامتحانات.

مع الجامعة حطمت كل القواعد الكاثوليكية التي تربيت عليها، وأهنت تراثا طويلا من الاستذكار المضني ومن الرغبة غير المبررة في التفوق على زملائي الذين اكتشفت أن منافستي لهم لم تكن ذات أبعاد كونية كما كنت أتخيل في هذا الوقت.

أخذت ألفظ من نفسي صفات الدقة والتركيز والانضباط؛ انتقاما

من هذا الماضي السخيف، وقضيت أعواما بلا أي ضابط ولا رابط.

وحين، كبرت قليلا وكونت ثقتي في نفسي بناء على عوامل أخرى، صادفت الكثير من الدراسات التي تحكي عن الخراب النفسي التي تخلفه مدارس المتفوقين في نفوس طلابها.

لكن من حين لآخر أمسك بتلابيب الراهب الكاثوليكي المدفون في أعماقي، في نذر من كبرياء دقته، أو في قدرته المدهشة على حساب حاصل عملية رياضية طويلة، أو في أي من المهارات العبثية التي دجنوا بها إنسانيتنا لنصبح «أبناء الرب الأوفياء»..

يتنازعني الكاثوليكي الدفين، والفوضوي الطليق..

وما بين الاكتمال ـ أو قل ما هو شبهه ـ وما بين التعثر المحبب (أو ما هو نحوه)... عالقةٌ روحي، تتقاذفها تساؤلات شتى، ويتقاسمهما اثنان لا يرحم أحدهما الآخر أبدا.

قميص تكويه امرأتان

تكوي خطيبتي قميصي قبل أن أتوجه لدرس الرسم الخصوصي الذي أُسديه لطفل مازلت لا أعرف إن كان موهوبًا أم لا.

لكن والدته المطلقّة جاءتني بعد تزكية من سيدة سبق وأن رسمت لها «بورتريه» شخصيًّا، قبل أن أحترف العمل في رسم مجلات الكوميكس ومطبوعات الأطفال الخليجية.

اعتبرته مصدر دخل إضافيًّا.

لا.. الصراحة مهمة هنا.

والدة الطفل في عينيها شيءٌ آسرٌ مكبوت، لا تدري هل هو منطفئ لعوامل الزمن، أم أنه اجتهادها الخالص في التشويش الطوعي على جمالها الذي يستدعي أن تفكر فيه مرتين قبل أن تفكر في أي شيء آخر يخصها.

اتصلت بي واتفقت معي أن ألتقيها في مقهى ستاربكس كي تسألني عن عدة أشياء قبل أن تتفق معي على تدريس ابنها فنون الرسم، أو بالأحرى تنمية مهاراته غير الموثوق في وجودها بعد!

تقول لي إنها اتفقت له مع عازف كمان، فضلا عن إلحاقه

بتدريبات رياضتي الكاراتيه والسباحة في نادي الصيد؛ في محاولة منها لاستجلاء وجه تميز طفلها الذي تريد نحته بدقة ليصير شيئا مثاليًّا.

هذا النوع من العناية عادة ما يمنى بالفشل الذريع، لو كان لي أن أتلصص على المستقبل، فسيدمن طفلنا المدلل الواقع تحت هيمنة «فرط العناية» الكوكايين، وسيلقى حتفه في حادث انقلاب سيارة أثناء عودته من الساحل الشمالي.

هذه السيدة تربي ابنها، في الأغلب، لتغيظ طليقها، ولتثبت له ولنفسها وللمجتمع شيئًا ما.

في كلامي معها في «الإنترفيو» المُقَنَّع الذي اختارت بكياسة تحسد عليها أن تسميه جلسة تعارف لبحث أفضل الطرق لتعليم «أدهم» الرسم، بدت لي كما لو كانت تنتمي إلى هذا الطراز من البشر الذي تحس معه بتناغم خفي لا تدري مصدره.

لا أبالغ لأقول إننا مرشحان لأن نحب بعضنا البعض، لكني مؤهل للوقوع في فتنتها وهي مؤهلة لاعتباري نزوة عابرة.

لا يشترط أن يتطور الأمر إلى ما تظنه الآن وما تتخيله أثناء قراءة هذه السطور؛ فلا النزوات كلها في السرير ولا الفتن كلها في الجسد.

هل أدلك على الأشد وطأة من كل هذا؟

نصف الحب والإعجاب المنقوص والفرص التي لا تكتمل أبدا.

هذه التجارب التي لا تقوى أنت ولا يسمح الأمر الواقع بإكمالها، لكنها تظل في نفسك كندوب لا تنمحي. فلا هي بحدوثها أراحتك ولا بانعدام وجودها أنقذتك.

هذا الـ «بين بين» الملعون.

لديَّ من هذه الندوب الكثير. يكفي أنها انتهت بخطوبتي إلى جارتي التي ـ لتقريب الأمر إليك ـ أشبه ما تكون بابنة خالتك!

هل تعرف هذه الفتاة فرط الاعتيادية التي تبدو كأختك، أو لا تبدو موجودة على الإطلاق من فرط أنك لا تلاحظها؟ هذه العادية التي ترسو سفنك على موانيها بعد طول إرهاق.

لا مغامرة معها ولا خسائر ولا ملاحم ولا أي شيء على الإطلاق.. فقط عيشة هادئة وتفاهم مستفز لا تدرك مصدره.. لا تعرف هل هو في زهدك في أي شيء حتى في الصراع معها حول إدارة حياتكما المشتركة، أم أنه إرضاؤها لك لقناعتها الداخلية الكاسحة أو لضعف ثقتها في ذاتها.

خطبت «رنا» جارتي، كسيرًا مهزومًا ولم تبدُ بحال أفضل مني. حتى إنني في ليلة خطوبتنا قلت لها قولة درويش: «فلتوحدنا الهشاشة معًا!».

قلتها سخريةً مريرةً وفهمتها هي فهما رومانسيًا كان يتوسل «التوحد».

طيبة «رنا» تقتلني.

فلا هي بالتي تخلق لي حياة جديدة، ولا هي بالتي تداوي

جراحي القديمة، ولا أنا بالذي أقوى على الابتعاد عن هذا السلام والأمان.

تكوي «رنا» قميصي لأتوجه لبيت مدام «سلمى» لأقول لها قولة ما قالها قبلي في الخلق أحد، فأفتيها في سبع بقرات سمان وفي شأن «أدهم» ابنها.. هل سيكون موهوبا كليوناردو دافينشي، أم أن عليها أن تنتبه لتعليمه السباحة أو البيانو أو نحت التماثيل أو التزلج على الجليد؟

فتحت سلمى لي الباب.

لحظة انفتاح الباب حين تزور أي شخص تبدو لي مفصلية ودالة على مسار ما سيحدث لاحقًا.

شكل الحفاوة والترحاب، نظرة العينين من ترقب أو ارتباك أو فرح بمجيئك، كل هذا ينطبع في لحظة «الفتح».

دخلت ورحبت بي ثم قالت إن «أدهم» (شبط) في اللعب في النادي، وإنها حاولت أن تتصل بي لتعتذر لي عن اليوم (أقسم إنها لم تفعل) لكن هاتفي كان غير متاح.

اعتذرت لها وحاولت المغادرة لكنها طلبت أن أشرب عصيرًا أو شيئًا.. (عيب تدخل البيت وتمشي من غير ما تشرب حاجة).

كل ما جال بخاطري كان الهاجس الذي كرسته الأفلام العربية في نفوسنا. تراها ستسكب العصير على ملابسي.. ثم تعتذر بحرارة.. ثم تدعوني لخلعها كي تنظفها وتعيدها لي؟

تتواتر الدراسات العلمية التي تشير إلى أن الرجل يكاد يفكر في

الجنس عددا لانهائيّا من المرات يوميّا.. تقريبًا ٩ ملايين مرة في ٥١ ثانية أو شيء من هذا القبيل.. وما أنا إلا امرؤ من قومي.

كل هذا لأنها ستقدم لي عصيرًا؟

من يحكم تدفقات العقل الباطن؟ من يحكم دواخلنا ودقائقها؟ بل من يحكم الشيطان في وسوسته وهو يجري مني مجرى الدم من العروق؟

لم أكد أفيق من العراك المضطرم بداخلي، حتى جاءت بالعصير والماء ثم جلست قُبالتي في هدوء.

تأملتها دون تشوش أفكاري المعتاد. هذا جمال صافٍ من غير سوء.

حسنًا حين تعتمل الجملة الأخيرة في نفسك حيال أي امرأة فإنها تدرك على الفور، أو كما قال ماركيز: «النساء محض عرافات».

رأيت في عينيها تمييزا دقيقًا لما جال في خاطري منذ التقتني وحتى اللحظة، ثم ابتسمت لي ابتسامة خفيفة يمكن أن تعني كل شيء وأي شيء.

وبلا مقدمات قالت لي: قميصك مكوي كويس أوي.. واضح إن فيه مكوجي كويس جنب بيتك!

آآآي..

كما لو كانت قد ضربتني رصاصة في منتصف الجبهة!

وكأن طيف «رنا» حضر بيني وبينها وكأني يوسف الصديق حين رأى برهان ربه.

أحسست بتأنيب ضمير من طراز قاسٍ. فهأنا أفكر في امرأة بينما أتزين بقميص كوته أخرى.

«رنا» طويلة نحيلة شاحبة اللون خافتة الصوت، لكن لعينيها الخضراويْن قدرة على اختراق ذاتك لو أرادت.

شحوبها وخفوتها كانا ينسحبان من مجرد معطيات شكلية لحقائق نفسية تتكرس في داخلك مع الوقت.

أما سلمى، فمن هيئتها يبدو جليّا أنها مارست السباحة منذ الطفولة وحتى مقتبل العشرينيات كما قالت لي بينما نشرب العصير.

جسد ممشوق، كتفان كأنما تنفران من مكانهما في الهيكل العظمي ليصبح عرض صدرها هو الآخر مشدودا كالوتر.

الذين مارسوا السباحة يدركون هذا الأثر الهائل للماء. فلكي تسبح سباحة واثقة، لابد أن تتناغم أنت مع الماء فتدرك أي جزء من جسمك تحركه الآن بقوة وأي جزء تدفعه بانسيابية وأي جزء تتركه للماء يفعل فيه ما يشاء.

فإذا تولاك الماء، يرتب ضغطه وثقله على جسمك بتوازن مدهش، ثم سرعان ما ينطبع التوازن على هيئتك الجسدية، فتتوزع عضلاتك أو دهونك باتساق بامتداد هيكلك.. كما لو كنت منحوتًا لا مخلوقا.

شعرها طويل سائب وفي وجهها المتلون بين القمحية والسمرة الخفيفة نمش بسيط لتبدو كما لو كانت هندية حمراء فاتحة البشرة قليلا.

مع الوقت تميز لمسة الطبيعة الأم فيها.. كأنها لتوها قد تركت الغابات والبحيرات والسهول والتلال ودخلت لغرفتها كي ترتدي ملابس القرن الحادي والعشرين لتقدم لك العصير، وتتحدث معك في موضوعات بلا ضابط ولا رابط.

وبينما أضحك على موقف طريف تحكيه لي عن ليلة زفافها (المشئومة) التي أصيب فيها المأذون بزغطة استغرقت قرابة الدقائق العشر وسط حرج الأهل وضحك المعازيم، فجأة انسكب العصير من يدي على القميص!

هنا تتسع المساحة لكل التأويلات.

ربما يقول طبيب نفسي إنني تناسيت وتركت للاشعوري مهمة سكب العصير للمضي قدما للقدر المرجو والمتوقع.

وربما يقول المؤمنون بالغيبيات إن روحي استقرأت ما سيجري.

لكن الأكيد أن «رنا» لو شاهدت ما جرى، فستنهرني فورا وتأمرني بالمغادرة.

طلبت مني سلمى خلع القميص لتجفيفه وكيه بسرعة.

كأنما كانت هي الأخرى تنتظر المناسبة التي ستدعوني فيها لخلع القميص!

هل هذه مؤامرة، أم أن غرائزنا تتوقع وعقلنا يتولى تنفيذ المطلوب ولو من دون إدراكنا المباشر؟

أعرف ألاعيب العقل حين لا يريد أن يضعك في مواجهة قاسية

مع ذاتك ورغباتها فيهيئ الأسباب ـ بعبقرية ـ لتمضي إلى ما تحب دون أن تشعر بذنب يذكر.

قامت سلمى ودخلت غرفتها ثم خرجت بـ«تي شيرت» أبيض (basic) من هذا الطراز الذي ترتديه تحت القمصان في الخريف أو لإضفاء لمسة جمالية على هيئتك العامة.

قالت لي: ادخل الحمام والبس ده.. لحد ما أنضف القميص.

العرض هنا يبدو لطيفًا ولا ينطوي على أي شبهة أخلاقية.. هل أتبعه مرتاح الضمير، أم أن العقل والشيطان والغريزة ومكر النساء يتولون جماعةً ـ وبالتدريج ـ مسلسل تجريدي من ملابسي ليكون بعده ما يكون؟

دخلت الحمام وخلعت القميص وارتديت التي شيرت الأبيض ثم خرجت لها، فتناولت مني القميص بعادية شديدة ثم دخلت إلى حيث يمكن أن تنظفه.

أحسست ساعتها أنني سخيف ومبالغ في توقعي وتصنيفي للأمور، فسلمى تصرفت بعادية شديدة وبلطف بالغ، فيما لا يعني أن فيلمًا إباحيًّا كان سيجري تصويره بعد قليل كما كان يدور في عقلي.

ثم جاءت بعد قليل وقالت إنها وضعت القميص في برنامج التنظيف السريع الذي يستغرق ١٥ دقيقة فحسب، ومن ثم ستضعه في المجفف (drier) الذي سينهي المهمة في ٧ دقائق ثم ستكويه هي لي.

ثم أردفت مازحة: هنشوف أنا أشطر ولّا المكوجي اللي جنب البيت!

مالها والذي كوى القميص أول مرة؟ هل تدرك وتريد تنغيص جلستي المرتبكة معها بطبائع الأحوال؟

سألتها عن التي شيرت: بتاع مين اللي أنا لابسه ده.

ثم تنبهت إلى أن سؤالي غبي جدًّا، ربما كان خاصًّا بطليقها، الأمر الذي سيستدعي منها حكيًا ويتسبب في إحراجي أنا وهي في نهاية المطاف.

قالت بلامبالاة: عندي هنا من بدري.. مش فاكرة!

ثم سرعان ما تحدث كل منا عن ذكرياته في فترة الجامعة وبدا أن الوقت «لطيف» بحق.

توقفت الغسالة عن الزمجرة وأطلقت صوتًا موسيقيًّا يشير إلى انتهاء برنامج الشطف السريع. قالت لي: تعالَ معي نضعه في المجفف سريعا لنكويه.

تحركت معها وإذا بي أتجول في الشقة بالداخل.

لوحات جدارية.. تماثيل.. نظام إضاءة مميز.. سجاد فخم.. صور من ماضيها تزين الحوائط.. صناديق مشغولة بزخارف ونقوش عربية.. إبريق نحاسي ضخم يبدو عتيقًا بحق ويبدو متجانسًا مع باقي الأجواء في توظيفه الجمالي كقطعة ديكور طريفة.

ما الذي يحدث؟

أنا أقطع الشقة معها، مرتديًا تي شيرت قطنيًّا أبيض، وأبدو على مشارف غرفة النوم!

تناولت سلمى قميصي وخرجت ووضعته في المجفف، ووقفنا معًا في دقائق صامتة لسبب لا يمكن شرحه بسهولة.

كل واحد منا يحسب حساباته.

ماذا لو قبلتها؟ ماذا لو قبلتني؟ ماذا لو جرى أكثر؟ ماذا لو نهرتني وطردتني وبدا أن كل هواجسي الغرامية مجرد خيالات مراهقة؟

ولعلها تجري حسابات مماثلة بمفردات وقيم مختلفة.

استخرجت القميص.. ثم بدأت في كيِّه بسرعة وقدمته لي: شوف مكوتي عاملة إزاي واحكم إنت بقى!

دخلت الحمام، خلعت التي شيرت الأبيض وارتديت القميص مكويًّا مرة أخرى.

بدا أنيقا من جديد، لكن هل تصدقني لو أقسمت لك إن روحه مختلفة؟

هل يمكن أن يكون الكي كفعل ـ حيادي ـ مختلفا من يد لأخرى؟

لا أعني المهارة ولا الحذق في الكي.. بل في الروح والهيئة التي تنطبع على الملابس بعد أن يكوي هذا الشخص أو غيره هذه القطعة.

خرجت من الحمام وأنا أحس أن القميص تغير أو لعلني أنا الذي تغيرت.

شكرتها على حسن ضيافتها واستأذنتها في المغادرة، فسمحت لي بارتباكة غير مفهومة.

لعلها كانت تريد مني أن أبادر؟ أن أفعل شيئا ما مختلفا؟

لست أدري..

لست أدري حقًّا ما الذي كان يدور في خلدها.

عدت للمنزل فورا، كانت رنا لم تزل في شقتنا تجلس مع أختي الكبرى فاتن.

اقتربت مني رنا وأمعنت النظر فيَّ بتدقيق من غير طبعها.. ثم قالت:

من كوى لك هذا القميص مرة أخرى؟

مدمن الجنائز

أنهي عملي اليومي في شركة السياحة الكائنة بميدان التحرير في حوالي الثامنة مساءً، ثم أتوجه بروتين معتاد إلى قاعة العزاء بمسجد عمر مكرم.

كل يوم بانتظام صارم.

بدأ الأمر قبل عامين، حين صادفت عزاء وزير النقل الأسبق المهندس رضوان حفظي، كنت أمتن لهذا الرجل الذي أنصف المرحوم والدي السائق بهيئة النقل العام، حين تقدم له بشكوى بعد تعرضه لظلم وظيفي كاد يخطف روحه حسرةً قبل أوانها بعشرين عامًا.

قررت أن أقدم واجب العزاء لأسرة الوزير الراحل؛ امتنانًا لمعروفه مع والدي، ووفاء لسيرته النزيهة وطهارته التي ميزها الشعب المصري عن بكرة أبيه.

دخلت قاعة العزاء وجلست، حتى جاءني النادل بفنجان قهوة وزجاجة مياه معدنية.

تذوقت القهوة فإذا هي كأروع ما تكون!

لم أصادف قهوجيًّا يتقنها إلى هذا الحد..

هؤلاء أناسٌ صنعتُهم اليومية وأكل عيشهم «القهوة السادة».. فلم لا؟

تمزجت أيما تمزج، وترحمت على الراحل الذي امتدت أياديه البيضاء علينا حيًّا وميتا، ثم عزيت أسرته في غمغمة صامتة وخرجت.

في اليوم التالي كانت القهوة المجاورة لمكتب شركة السياحة الذي أعمل به مغلقة، عرفت أن الحي أغلقها بسبب خلافات حول نسبة الرشوة التي يتلقاها موظفو الحي والمحافظة من صاحب المقهى.. الأمر الذي امتد لمقاهي محيط التحرير بأكمله.

وأنا لديَّ عادة ترتقي لدرجة الإدمان.. فنجان قهوة الصباح.. وفنجان قهوة ما بعد العمل.

إذا فوتُّ أحدهما أصاب بصداع وعكرة مزاج لا تنجلي.

وفي رمضان أكون في أسوأ حالاتي على الإطلاق، وأحاول أن أتوازن كما السائر على الحبل في السيرك.. ولكن دون جدوى.

إلى أن ينضبط جسدي مع إملاءات الشهر المعظم نكون في الخمس الأواخر منه، فلا ألبث أن أعود لإيقاعي المعتاد.

وبينما أتمشى وألعن في الحي والمحافظة والمرتشين والمقاهي.. لمحت عزاء في دار المناسبات.

وهنا لمعت الفكرة.. أيّا كان المرحوم أو المرحومة.. لم لا أدخل؟

في هذه القاعة قهوة عظيمة الصنع، مجانية، يتم تقديمها باحتراف في أجواء مليئة بالصمت والخشوع اللائق بشرب القهوة!

كان المرحوم هذه المرة نائب رئيس حزب الوفد.. الدكتور طلعت المنوفي.

شربت القهوة وترحمت على الوفد وسعد زغلول والنحاس ومكرم عبيد والليبرالية المصرية من أطرافها لأطرافها.. وبداخلي امتنان عظيم للحزب وللمرحوم.

فلم يكن لي أن أحظى بهذا الفنجان الرائع لولا وفاة الدكتور طلعت.. عليه من الله الرحمة والمغفرة.

دارت الفكرة في رأسي.. فلم لا أرتاد صالة العزاء مادام الموتى - يرحمهم الرحمن - يشيعون بصورة يومية منها، وأنهار القهوة مبذولة بسخاء على أرواحهم الطيبة في هذه الصالة؟

الصفقة عادلة.

أنا أريد القهوة المتقنة الصنع.. وبالمقابل أقدم واجب العزاء.

اشتهر مسجد عمر مكرم أنه محل عزاء المشاهير وكبار رجال الدولة والمجتمع. وما أكثر المشاهير الذين انحسرت عنهم الأضواء حتى ليقف ذووهم في صالات العزاء شبه الخاوية محرجين مدهوشين من الأيام التي يداولها الله بين الناس.

فكم من رجل كانت أبوابه مطروقة بالليل والنهار، وحين ذهب إلى قبره انفض عنه الناس كأنه الجرب!

أشرب أنا قهوة جيدة الصنع في قاعة مكيفة، وأشغل كرسيًّا ربما يفرق في شكل القاعة وعدد الحاضرين فيها.. بما يحفظ لأهل المرحوم شيئا من ماء وجوههم.

لو كان الأمر بأيدي البعض.. لاستأجروا الناس لحضور العزاء استئجارا.

ولو سألني أحدهم يوما ما عن هويتي، فسأغمغم في حزن بأنني التقيت المرحوم مرة ما.

ومَنْ ساعتها سينقب خلفي؟

قضيت عامين أنتظم يوميًّا في طقس العزاء، أشرب قهوتي، وأسمع قسطًا من القرآن وأنصرف.

ولحبك الدور، عممت اللون الأسود على ملابسي لأبدو معزيا مثاليًّا يدرك القواعد والأصول وينسكب من قلبه الحزن الهتون.

ومع الوقت تكونت لديَّ ملاحظات غريبة عن عالم العزاء والمعزين وجنازات المشاهير.

فأنصاف المشهورين من الممثلين والكومبارس عادة ما يحضرون عزاء الفنانين والمخرجين الكبار، ومن استراقي السمع لهمساتهم فهمت أنهم يريدون أن يظلوا دوما حاضرين في النظر العام و«على بال» المخرجين والمنتجين والممثلين.

فضلا عما لمسته من البعض من إحساس ـ يبدو مضحكًا ـ بأنهم يعزون في زميل لهم!

كيف لكومبارس كل رصيده من السينما عشرة مشاهد؛ خمسة منها صامتة أن يعتبر نفسه زميلا لنور الشريف مثلا؟

شر البلية ما يضحك والله.

وفي حالة رجال الدولة فإن هناك أوجها من المسئولين القدامى الحاضرين في أي عزاء، فيما بدا لي عاكسًا وقت فراغ كبيرًا ثم محاولة انتساب وهمية لعالم «الفاعلين» ومحيط المسئولين.

البعض يسعى لأن تلتقطه عدسات المصورين بجوار هذا الوزير أو بجانب هذا المسئول، ليبدو على صفحات الجرائد كما لو كان حيًّا لم يزل.. مسئولا وموظفا كبيرا ولو كره الكارهون ولو أحيل للمعاش.

والبعض يتوسل في مجاملات العزاء أن ترق له أعين النافذين فيعيدوه في أي منصب كان.

المناصب إدمان.

وفي يوم من الأيام وبينما أتناول القهوة المتقنة من يد النادل المهذب فوجئت برجل كنت أشاهده باستمرار، وبدا لي أنه مدير القاعة أو شيء بذلك أشبه.

جاء ناحيتي وشدني من ياقة قميصي وقال لي: تعالَ معي في هدوء.

وضعت فنجان قهوتي ومضيت معه مستسلمًا حتى دخلنا غرفة صغيرة يجهزون فيها القهوة وتبعد عن قاعة العزاء بعض الشيء.

ثم لكمني في وجهي وقال: سنتين يا ابن الكلب كل يوم بتيجي تشرب قهوة وتمشي! سنتين يا ابن الكلب وأنا سايبك وأقول هيحس على دمه.

سنتين وإنت قريب كل الممثلين والوزرا والأغنيا يا ابن الكلب؟

لو شفتك هنا تاني هسلمك للشرطة.. فاهم؟

شايف الباب الصغير اللي هناك ده؟ هتخرج منه حالا وما أشوفكش هنا تاني أبدا.

القهوة دي من مال ناس.. مش سبيل ولا تكية يا ابن الكلب.. ثم ركلني برجله وأنا مذهول لا أستطيع رده ولا الرد عليه.

تركته وتحركت خطوتين ثم توقفت.

نظرت ناحيته وقلت له: ممكن أشرب آخر فنجان قهوة وأوعدك مش هرجع تاني؟

مقاتل السيستم

هل كنت أظن يوما ما أن مليون جنيه في طريقها إلى جيبي وأنا عاطل عن العمل تماما؟

الرزق يأتيك ولو كنت في شق صخرة.. آه والله.

* * *

حسنًا، لقد ذهبت الأيام الخوالي.. تلك التي تلت ثورة يناير، حين كنت أعمل بلا توقف، والكسب يجري كما الأنهار التي تشق قلوب القارات ويفيض على جوانبها الخير.

كمدرب «آيكيدو» انتعشت أيامي، فقد أقبل الناس على التدرب على رياضات الدفاع عن النفس، خاصة الشابات والسيدات، في أيام كان سمتها العام «الانفلات الأمني» و«انتشار البلطجة».

ظهر الكابتن سامح سنهاد على شاشة إحدى الفضائيات للحديث عن أساليب الدفاع البسيطة عن النفس، في أعقاب حادثة تحرش شديدة الفجاجة، تداولها الناس على هواتفهم المحمولة وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، وشغلت خطباء الجمعة على منابرهم ومقدمي البرامج على شاشاتهم.

الكابتن سامح أحد قدامى مدربي الآيكيدو في مصر، رجل هاديء المظهر له صوت عميق يوحي بالثقة، وطريقة في الكلام كأنها تحسم الأمور.. لا تشرحها ولا تقدمها ولا تبررها ولا تناقشها ولا تتأملها ولا أي شيء.

الرجل يتكلم كما لو كان يقطر بالحكمة وفصل الخطاب.

تأتي جمله مغلقة التركيب اللغوي والموسيقى الصوتية، فهو يقف مع آخر حرف في آخر كلمة بحسم وصرامة.. كأنه انتهى لتوه من تلاوة بيان إلهي لسكان كوكب الأرض.

كأن يقول: لو لم تدافع عن نفسك جيدًا.. فربما يقتلك الآخرون..حتى ولو كنت في بيتك في حضن زوجتك وبجوار إخوتك وأهلك.

ورغم أن هذه الجملة على سبيل المثال قابلة لاستدراكات كثيرة، لكنه يقولها كما لو ألقى من على كاهله بلاغًا إلهيًّا للناس.

طريقته في الأداء كانت توحي بالثقة العميقة.

المهم أنه من بعد هذه الحلقة انتعش سوق مدربي الآيكيدو جدًّا.

مارست الآيكيدو منذ كنت في السابعة عشرة من عمري، وهي رياضة دفاعية عن النفس، لا قتالية، تعتمد على توظيف حركات الخصم واندفاعاته ضده هو.

تقف أنت في هدوء واتزان، لايهم مقدار قوتك البدنية، فالأهم أن تدرك أن كل حركة من خصمك تنطوي على ثغرة ما وتفتح بدورها باب ضعف فيه.

كل ركلة أو صفعة يحاول تسديدها لك، تُخلّ بطبعها بأمان جسده؛ إذ إنها تسمح لك بجذبه وشده وثنيه وإلقائه ولوي مفاصله وكسر عنقه لو لزم الأمر.

الفكرة أن الآيكيدو يحلل حركات الجسم، ويكيد لكل حركة تُخلّ بهيئة الجسد المعروفة. وكأن في خروجك عن طورك المسالم وفي قرارك بمهاجمة غيرك، تفتح أبواب ضعفك دون أن تدري.

لاعب الآيكيدو لا يهاجم أحدًا.

هو شخص يدرك أنه يركز الكون في نفسه، ويعي أنه يتنفس بطريقة يتناغم فيها الأكسجين في جسده.

يبدو لاعب الآيكيدو المخضرم كما المتدينون المواظبون على العبادات منذ سنوات.. هادئ السمت (ربما بليده أحيانا)، واثق الخطوة، يشعر بسكينة ملازمة، ويشعُ سكينة لافتة.

حتى هدوءه يربك خصمه.

المهم أنني انخرطت في تدريب اللعبة في صالات الألعاب وفي النوادي وبعض المراكز الثقافية والرياضية.. وانتعشت أحوالي كثيرًا.

لكن في مصر كل شيء يأخذ شكل الموجة، التي كما تعلو لتجرف ما أمامها، سرعان ما تنحسر وتتراجع.

عدت متسكعًا مرة أخرى، فلا أحد يحتاج الآن للآيكيدو.. لقد ملَّ الناس، وانطفأت حماسة ما بعد الثورة، وغيمت أجواء عامة من الكآبة الاقتصادية والمعيشية على كل شيء.

حتى «السايبر» الذي كنت أشارك فيه أحد جيراني.. أخفق هو الآخر لسبب لم أتمكن من تشخيصه.

فكل «سايبرات» مصر تعمل بنفس الكفاءة، إلا «سيبري» أنا!

شهر وراء شهر والأمور تتعثر، وأتأخر في سداد قسطي الشهري من قرض بنك (Kgc) ويتصل بي محامو البنك في مطاردات سخيفة، تنال من صفاء روحك ومن اتزان بدنك حتى ولو كنت إله الآيكيدو نفسه.

حاولت الاتصال بأكثر من صديق بحثًا عن عمل لكن بلا فائدة... أنت تعرف أنها إذا استغلقت، فلا مجال حتى ولو قال الشافعي غير ذلك!

وفي واحدة من المكالمات التي أبحث فيها عن نصف فرصة عمل، فصل الخط دون أن أكون قد استهلكت رصيدي كاملًا.

اتصلت بخدمة عملاء شركة الاتصالات التي يتبع لها خط هاتفي المحمول.

يرد عليَّ شاب مرتبك يحاول أن يبدو محترفًا ويرغم نفسه على ادعاء تهذيب لا يتأتى للصديقين أنفسهم.

يقول لي إن اشتراكي في خدمات الرسائل الإخبارية والمعلوماتية استهلك رصيدي.. كلمة مني وكلمة منه، اشتبكت معه وطلبت تصعيد الأمر لمديره وإلا سألجأ للقضاء؛ لأنني لم أطلب تزويدي يوميًّا بهذه الخدمات أصلا.. لتقوموا أنتم بتزويدي بها ثم بخصم قيمتها من رصيدي ودون علمي!

كلمة «القضاء».. أربكت الفتى المهذب، ووعدني باتصال خلال ساعتين من مديره.

لم أنتظر اتصال المدير، أرسلت شكوى لخدمة العملاء عبر موقع شركة الاتصالات، وحرصت على كتابتها باللغة الإنجليزية التي صححتها لي أختي الصغرى هاجر التي تدرس بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، ثم أرسلتها مهددًا بأنني سأقاضيهم وألوك أكبادهم في فمي.

خلال الساعات الأربع التالية تلقيت ثلاث مكالمات معتذرة تحاول أن تفهم سر شكواي بالضبط، وتمت مراجعة حساب خطي منذ بدأت في تلقي هذه الخدمات المدفوعة دون علمي، وقامت إحدى الموظفات الذكيات التي كلمتني بتعويضي بقيمة ما دفعت على مدار سنتين من تلقي هذه الخدمات ومن تغريمي مقابلها.

ثم قالت ـ باسم الشركة ـ إنه تم تجديد اشتراكي مجانا لمدة ستة أشهر قادمة، وإن الشركة تعتذر لي عما حدث.

أغلقت معها الاتصال وأنا في غاية السعادة!

النتيجة مرضية جدًّا لي.

في اليوم التالي وأثناء ركوبي إحدى السيارات التابعة لخدمة التوصيل الخاص «أوبر» تم تقدير قيمة مبالغ فيها مقابل الرحلة التي قطعتها.

أرسلت «إيميل» لخدمة العملاء لا يفرق كثيرا عن أخيه الذي أرسلته قبل يوم لشركة الاتصالات.

ثم سرعان ما توالت الاتصالات بي وحقق موظفو الشركة في الواقعة، وتلقيت أطنانًا من الاعتذارات ثم تم تعويضي بخمس رحلات مجانًا داخل نطاق القاهرة لمدة أسبوع.

ثم تكرر الأمر مع عدة شركات سواء شركات الاتصالات أو خدمات التوصيل الخاص أو خدمات الإنترنت أو شبكات التلفزيون الخاصة مدفوعة الأجر.

أصبحت مدربًا على القتال والظفر بالفوز على ما يبدو!

أقاتل كل ما ينتظم داخل «سيستم» عمل.. ويمكن التصعيد داخله من مستوى إداري لمستوى آخر.

وتوجد ـ دوما ـ طريقة لمواجهة الكيان واصطياد أخطائه والتعامل معها.

أحسست أن غضبي وفراغي وتعطلي عن العمل، كان يختلق معارك مع أي جهة يمكن أن أشتبك معها.

كان فراغًا موحشًا.. وغضبًا سخيفًا يعتمل في نفسي.

ربما كان الأمر في البداية هكذا فعلا، لكن مع الوقت بدت لي المكاسب المتاحة أكثر إغواء من أن أتركها.

وجلست أفكر في الأمر كلاعب وكمدرب آيكيدو.

خدمات الشركات في مصر عادة ما تنطوي على مشكلة ما.

بسبب الاستخفاف بحقوق الناس وبسبب الإهمال وبسبب غياب الرقابة وبسبب الموظفين المصريين والمستهلكين المصريين وبسبب الاحتباس الحراري وبسبب كل شيء تقريبا.

لكن رغم هذا، فإنه في الشركات الكبيرة التي يفوق رأسمالها نصف مليار الجنيه على سبيل التخمين، لابد من وجود «سيستم» يحمي سير عملية الإنتاج والبيع والشراء.

وبموجب خبرتي في الاتصالات والشكاوى، تنشأ هنا أقسام خدمات ما بعد البيع وأقسام الشكاوى والعناية بالمستهلك، وتعمل تحت مظلة هدفين.

الأول: حل المشاكل المتوقعة والطبيعية وإرضاء العملاء والإبقاء عليهم. والثاني توفير أي مواجهة قانونية أو قضائية أمام المحاكم؛ وذلك لأن مثل هذه المواجهات تكبد الشركات الكبرى الكثير من سمعتها حتى لو خرجت منها منتصرة في نهاية المطاف.

كم مستهلكا محتملا قد يتراجع عن الاشتراك في هذه الخدمة أو شراء هذه السلعة من الشركة.. لو قرأ خبرًا أن الشركة سجنت أو فلنقل هزمت أحد المستهلكين الذي قاضاها أمام ساحات القضاء؟

هنا كلاعب آيكيدو أدرك أن كل حركة/ خطأ من الشركة يفتح باب جحيم محتملًا عليها. فكل حركة تكشف نقطة ضعف.

مع الوقت ومع المشاكل التي كنت أفتعلها مع مختلف صنوف الشركات (شركة صيانة الغسالات ـ توكيل سامسونج للهواتف المحمولة ـ توكيل سيارتي ـ شركات الأدوية ـ شركات الاتصالات.... إلخ إلـخ).. تكوَّن لديَّ حسّ دقيق عما يفزع هذه الشركات وعن طريقة التصعيد المثلى داخل هذه الكيانات وبقوانينها الداخلية.

ونشأت لي حياة موازية تمامًا.

أحضرت ورقة وقلمًا وكتبت أسماء الشركات الكبيرة التي يمكن لي شراء السلع والخدمات التي تبيعها.. وأخذت أشتري وأجرب، مبتهلًا إلى الله في أعماقي أن أجد السلعة معطوبة أو الخدمة غير مرضية.

(هواتف محمولة ـ تلفزيونات ـ لابتوبات ـ غسالات ـ خدمات تلفزيون مدفوعة ـ خدمات شراء عبر الإنترنت ـ عروض اتصالات...).

ثم تفرغت لملاحقة هذه الشركات وابتزازها، وتكون لديَّ مع الوقت حسّ تفاوضي ممتاز يدرك جيدًا ما الذي يمكن أن أحصل عليه من تعويض مقابل ماذا.

وفي خمسة أشهر حصلت على التالي كتعويض: لابتوب ـ غسالة ـ طقم أقلام باركر ـ أدوات غطس ـ قسائم شراء مجانية من كبرى المتاجر ومحلات الملابس ـ خط تلفون مدفوع مسبقا يوفر خدمة إنترنت ـ بلاحدود ـ لمدة عام قادم.

استغللت رصيدي المجاني التعويضي من شركة المحمول، وعشرين ألف جنيه كنت أدخرها.. وأدرت بيزنس التجريب واكتشاف الخطأ وملاحقة المتسبب فيه (وابتزازه إذا لزم الأمر)، ثم الحصول على التعويض.. ثم بيع التعويض!

في البداية أحسست بوخز ضمير.. لكنني اعتبرت نفسي مع الوقت «جزءًا» من السيستم نفسه.. فلنقل إنني أعمل «مختبر سلع» محترفًا.

أختبر السلعة والخدمة والأداء.. أشخص المشكلة.. ألفتهم إليها.. آخذ أجري على هيئة تعويض!

هل لابد أن أذهب إلى الـ(HR) الخاص بكل شركة وأطلب توظيفي هناك كي أعمل وأتقاضى راتبًا؟

الحياة ليست صيغة واحدة.. والعلاقات بين البشر ـ في العاطفة والتجارة ـ لا تخضع لقانون واحد فحسب. وأنا وجدت نفسي على خارطة قوانين الرأسمالية وقواعد اللعبة.

* * *

مع الوقت ومع اعتياد الفوز.. تسرب لي ملل طفيف.. وهمس لي شيطاني (أو ربما ملاكي الحارس!): ماذا عن المزيد؟

قررت على سبيل الاستكشاف والفضول والمضي قدمًا في اللعبة رفع قضية ضد شركة (BXM) للأدوية، بعدما اشتريت من إحدى الصيدليات دواءً ضد الحموضة، تسبب في نوبة قيء عنيفة كادت أن تودي بي.

بعد قراءة الروشتة المصاحبة للدواء وبمساعدة جار لي صيدلي عرفت أن التركيبة الكيميائية لهذا الدواء لابد أن تتغير بناء على توصية عالمية بعد دراسة الأثر المترتب على دخولها لجسم الإنسان بعد ثلاث سنوات من طرح الدواء/ التركيبة في الأسواق العالمية.

لكن كالمعتاد، في مصر لابد أن تنتهي الكمية المنتجة من الدواء سواء من المخازن أو الأسواق؛ حتى يتسنى إصدار النسخة المعدلة من الدواء.

توجهت لفوري لأقرب مستشفى وطلبت من الطبيب تقريرًا بحالتي الصحية، ثم اتصلت بأحمد ابن خالتي والذي يعمل محاميًا لتحرير محضر ضد شركة (BXM).

أحمد ابن خالتي محامٍ بائس، يقتات على قضايا الطلاق والنفقة، وكثيرًا ما كنت أقول له إنَّ فلوسك مغموسة في الغم.

فأي هناءة بال وأنت تتقاضى أتعابك ـ الحلال تماما ـ من سيدة تطارد زوجًا نذلا ليصرف على أبنائه؟

لكن أحمد كان نبيلا وشهمًا، ويتغاضى عن كثير من مستحقاته المالية.. ممزوجا بعبط وطيبة وفدائية وسوء حظ منذ كنا صغارا.

وبعد تحرير المحضر.. اتصلت بخدمة عملاء الشركة وأخبرتهم بما أصابني بسبب دوائهم الملعون.. فحاول الموظف تفنيد أسبابي بصلافة وجليطة.. وبأنه ربما كان مرجع الأمر أن لديَّ حساسية من أي من مركبات الدواء وأن عليَّ أن أقرأ النشرة جيدا قبل الشكوى.

حسنًا، لقد تحرك الوغد ممثل الأوغاد... وقد آن أوان لاعب الآيكيدو أن يستهدف نقطة الضعف المكشوفة.

قلت له.. حسنًا.. هذا تقولونه أمام ساحات القضاء، لقد رفعت عليكم قضية؛ لأن المنتج كان يفترض به أن يختفي من الأسواق منذ ستة أشهر، وبعد نوبة القيء العنيفة أثبت حالتي الصحية في مستشفى حكومي.. وغدا يتوجه المحامي الخاص بي للنائب العام لتقديم بلاغ.. وسأذهب لمدينة الإنتاج الإعلامي ولكل الصحف والقنوات كي أفضحكم.

ثم أنهيت المكالمة.

عامة لديهم رقم هاتفي مسجل على النظام الصوتي الذي يصنف سبب اتصالك ويسجل رقم هاتفك ويسجل المكالمة لضمان ما يسمى بـ«جودة الخدمة».

ولو لم يتصلوا، فسأقاضيهم وأنظر إلى أين يصل الأمر.. فلن يكلفني شيئًا يذكر.

بعدها بساعة ونصف تلقيت ثلاث مكالمات من الشركة.. مجموعها يصل لقرابة الساعتين تقريبا.

في البدء يستفسرون بأدب..

في المنتصف يحاولون التشكيك في عدالة قضيتك وفي منطقية دوافعك.

ثم يلوحون بإمكانية المقاضاة المضادة.. (حضرتك لو ثبت بأي طريقة إنك شوهت سمعة الشركة بدون وجه استحقاق محامي الشركة هيئذيك.. أنا بكلمك وأنا زيي زيك بس أنا عارف الشركة بتتعامل إزاي في الحالات دي.. ده نصح شخصي والله).

هكذا يحاول إفهامك أنه في صفك.. بينما يقول لك ـ ما معناه: لو واتتني الفرصة فسأفصل رأسك عن جسدك.

وفي النهاية يدعونك لجلسة ودية معهم.

اصطحبت أحمد ابن خالتي الذي ارتدى يومها بدلة أنيقة بعض الشيء.. فبدا كما لو كان محاميًا بحق!

ذهبنا وجلسنا معهم.

ولما بدت لممثلي الشركة الثلاثة الذين جالسونا، قوة موقفنا القانوني (لأن كل شيء سليم على مستوى الورق والإجراءات وخلافه).. وعدوني بالاتصال مرة أخرى.

تحركت مع أحمد وذهبنا لأقرب كبابجي بجوار المقر العملاق للشركة في المهندسين.. لا أدري هل أحسسنا أننا في طريقنا للانتصار عليهم، أم أنني كنت أستنزل النصر بابتهاج استباقي على سبيل التفاؤل.

ثم وبينما ألوك قطعة لحم لذيذة.. تلقيت اتصالا من رقم خاص.. كان المتصل أحد الثلاثة الذين جلسوا معنا.. يعزمني على العشاء الليلة.. ويطلب أن أحضر أنا والمحامي الخاص بي.

* * *

انتهى العشاء وانتهى الاتفاق بسحب الدعوى القضائية والتكتم على الأمر تماما مقابل تعويض بمليون ومائة ألف، مع تسليمهم أوراق القضية كافة.

أخذ أحمد ابن خالتي مائة الألف.. وكاد يطير من السعادة..

وأخذت أفكر في مليون الجنيه التي جاءتني (بسبب) تعطلي عن العمل!

لولا العطلة وكثرة الخناقات.. ما فهمت (السيستم)، وما كنت لأفهم أن لكل من أتعامل معهم ثغرة.. يمكنها أن تجعلني أعيش بصورة شبه مجانية تقريبًا.

بل يمكنها أن تضع في حسابي البنكي أول مليون جنيه.

نصاب النساء

على كثرة ما التقيت من نصابين وأفاكين، بدا عماد حراجي استثنائيًّا بالنسبة لي.

فقد اختار تخصصًا غريبًا لممارسة النصب، والأخطر من التخصص ومن النصب هو اضطراره أصلا لممارسة النصب أو بالأحرى اختياره لممارسة النصب عوضًا عن أن يمارس حياته ككثير من خلق الله الذين يكتفون بأرزاقهم من مواردها «الطبيعية».

عماد طويل القامة، يمتلئ قوامه قليلا، إلى حد أن يستدير له كرش يداريها من وقت لآخر، سواء باختيار الملابس الأكثر قدرة على إخفائها أو بممارسة الرياضة الشاقة كما لو كان جنديًّا في سلاح المظلات.

أبيض البشرة، جميل العينين، مهندم الشعر.. يتاخم الوسامة معظم الوقت، ويزاوره قبح غريب من وقت لآخر.

لا يمكنك تشخيص وجه وسامته على نحو دقيق، فإذا كان جمال وجهه وبسيط تكوين جمجمته، فإن جسده أحيانا ما ينتفخ من تحت رأسه كالجثة النافقة.

وإذا كان مبعث الجمال (المراوغ) هو حلاوة لسانه وموسوعية معارفه (التي يصر على تضفيرها بمعلومات مخترعة وأخرى زائفة وثالثة غير موثوقة الدقة، ولهذا تفصيل)، فإنه أحيانا ما يتحول لشخص سليط بارد، يتفوه بالكلمة لا يلقي لها بالا فتجرح هذا وتخدش ذاك.

الحاصل أنه يتراوح في حالاته بين رجل يقترب من الأربعين، وتكسوه الوسامة حينًا، وتغشاه سحابة القبح أحيانًا.

تخصص عماد في النصب على السيدات الميسورات المأزومات عاطفيًّا وزوجيًّا.

ذات مرة وبينما ينفث دخان شيشته وقد راق باله، بدا كما لو قد حصل على مبلغ ضخم من المال؛ بحيث ينتعش كلية إلى هذا الحد.. قال لي:

السيدات قبل الأربعين بقليل وبعدها بقليل في أوهن حالاتهن..

يخذلهن رجالهن عادة، ويخذلهن الأمر الواقع وتطاردهم البيولوجيا بحقائقها المريرة.. هنا تتسع إمكانية التسلل وتواتي فرصة الاختراق.

(كان يتحدث باتساق فيروس مع نفسه).

الأمر يصبح كما انفتاح المسام بعد الحمام الساخن، أو بقابلية السيارة للحركة في انفتاح «الدبرياج».

السيدات الميسورات ـ يا أحمد بيه ـ يتحرقن بمالهن ويتفنن في تضييعه.. وحين يحين هذا الحين أو يحل الطور على المرأة في هذا

الوقت.. أظهر أنا مدركًا لكل ما تحتاجه سيدة، ومتعلمًا ـ بالدربة والتجربة ـ أخطاء الرجال الذين مروا في حياتها من قبلي.

أملأ حياتها بهجة وحبورا وأرتد بها للعشرينيات من عمرها، أعاكسها وأدللها وأستهلكها في مجهود بدني يثبت لها أنها مازالت شابة وعفية وفي صدر الحياة.

أدعوها للعب البولينج.. أحيانا للجري.. أدفعها لترتيب سفرية لنا لإحدى المدن الساحلية على البحر الأحمر لنمارس الغطس والسباحة.. وأجري وراءها على الشاطئ كثيرًا.

أغير وجهة نظرها عن بدنها التي تعتقد أنه في سبيله للأفول.. وأن شمس الأنوثة في سبيلها للغروب عنه.

في حقيقة الأمر، ربما يجافيهن الرمق حقًّا، لكنه الحماس والأدرينالين بفعله السحري الذي يجعل أكسل الكسالى يجري كما بطل أوليمبي حين تقترب سيارة من دهسه.

حين يشعرن بالحب والدفء واستعادة الحياة وإعادة تفصيلها وممارستها في ظروف أفضل، فإن الأدرينالين يفعل فعله في الأبدان، فتحس (الزبونة) كما لو أنها ارتدت صبية مرة أخرى.

إنها الخمر تلف الرءوس ـ يا أحمد بيه ـ وإنه الحب يريك من الأمر غير ما هو عليه.

وأنا كقناص محترف أبحث عن نساء ترى فيهن (بقايا عِزٍّ زائل).

بمعنى.. سيدة تتحدر من أسرة ثرية وقد تفلَّت المال من بين أيديهم رويدًا رويدًا حتى لم يبقَ منه إلا ما يكفي لإقامة مراسم الثراء الوهمي أو بقاياه.

المال ما لم يكثر.. فإنه ينزوي ويتضاءل حتى ليكاد يذهب كله كأنه لم يوجد يوما.

وهذه البقايا من حقي أنا بعدما فرض الزمن ضرائبه.. وأخذ كل ناهش نهشته من الثروة.

النصابون والأزواج الأنذال والزوجات الخائنات والصنايعية الماكرون والسماسرة المجحفون وكل الكائنات الطفيلية التي تأخذ من تل ثروة البلهاء وحسني النية.. حتى يختل التل.

أنا شخصيًّا أتعامل مع دوري في هذه الدورة الحياتية الطبيعية، كدرس ختامي رائع يصلح لتعليم هاتيك النسوة المحزونات كيف ينبغي لهن ألا يثقن بأحد أبدا.

وبالمقابل فإنني أعيد لها شبابها المراق، وأهيئ لها من أيام السعادة والحب ما لم تعشه قبلي.. لا لشيء صادق في فعلي.. لكنه الاحتراف.

ومعاملة النفس البشرية أحيانا تحتاج للاحتراف في تغذية مصادر بهجتها أو تجفيف منابع هواجسها، بأكثر مما تحتاج للحب الخالص الصافي الذي ينطلق بلا هدى ولا خطة في كل اتجاه وأي اتجاه، وربما دون أن يثمر شيئا في نهاية المطاف.

الحياة ـ يا أحمد بيه ـ تنطوي على مهن غير منصوص عليها في كتب المدارس ولا في المؤلفات الاقتصادية الكبرى.. وأنا أعتبر نفسي حكيمًا.. مُعلمًا.. أمرر الدروس والسعادة في آن معًا.. ولقاء هذا آخذ أجري.

تقول لي: ولم لا تنصحهن أو تقف بجوارهن؟ أقول لك: ليت الإنسان كان ممن يسمع النصح.. لكن الإنسان ـ كما يقول خالقه ـ كان أكثر شيء جدلا.

وكل ما أقوم به هو دوري المنصوص عليه، إذا ما كنت تؤمن بأن كلًّامنا ميسر لما خلق له.

لم أدرِ على وجه الدقة سر مصارحته التي اتخذت طابع المحاضرة أو المرافعة.. كما لو كان يمرر لي خلاصة خبرته النفيسة.. لكنني اعتقدت بيني وبين نفسي أنه كان بحاجة لشيئين كلاهما ضد بعضه البعض.

الأول أنه بعد ـ تعكيمة أو نصباية من طراز رفيع ـ كان بحاجة للزهو واستعراض القدرات ومكامن وملامح العبقرية التي تسكن تلافيف مخه.

والثاني هو أنه كان يدرك أنني بتكويني المنغلق والمتحرز، كابن بارّ للمدارس الكاثوليكية، ثم كشاب ينتمي لأسرة صعيدية محافظة كثير من الشيء.. سأدين كل ما يقول وسأرفضه تماما وربما أحتقره بيني وبين نفسي.

وهنا مكمن التناقض وجوهره.. لقد كان بحاجة للشعور باحتقاري له وبمحاولتي عدم إظهاره.. ليعاقب نفسه!

عماد الحراجي مذيع راديو متوسط الشهرة والقيمة، رغم ألمعيته وإطلاعه الواسع على التاريخ والعلوم السياسية والآداب والفنون، فإنه حين يتكلم عبر أثير الراديو يتحول إلى شخص شديد العادية

يكافح لكي يبدو استثنائيًّا.. أو يبدو شخصًا لذيذا وقد هجرته المعارف والنباهة، فهو يستقوي على الأمر الواقع ببقايا ما فيه من (عز زائل)!

فسبحان من يدبر الأمر ويصوغ العلاقات ويقر الحقائق بين بني آدم.

تخصص عماد في إسداء خدمات الاستشارات الإعلامية للممثلين والمطربين وكبار المنتجين، ورغم ما كان يحصل عليه من مبالغ مالية كبيرة لقاء هذه الأعمال، فإن التجاءه للنصب على السيدات اللائي يحاربن انقطاع الطمث.. كان مثيرا للغثيان.

كأن عليه ذنبًا في الأرض أن يقتات بكل حقارة على بقية أموال السيدات المحبطات.

تركت عماد على القهوة وفي نفسي سؤال يستبد بي:

لماذا لا يلجأ للبنات الصغيرات في مقتبل العشرينيات وهن للتغرير أقرب وأسهل؟

ثم تذكرت أن هناك رجالا يغررن بالسيدات العجائز ليحصلوا على ثرواتهن وقد تسرب منهن شيء من التعقل من بعد الستين من العمر.

ثم كأنني أواجه نفسي بهذه الحقيقة: ما أحط الرجال عمومًا ولو كنت منهم!

ثم كأن هاتفًا يواجهني من بين ضلوعي: وهناك نساء متخصصات في الالتفاف على ثروات الرجال في كل مراحلهم العمرية أيضًا!

ما أتعس الإنسان والله!

ما الذي يجعلك يا عماد تترك أبواب المال الحلال ـ افتراضًا ـ التي فتحها الله لك عبر أثير الراديو ومن خلال الاستشارات الإعلامية للفنانين.. حتى تتحول إلى هذا الأفاك الوضيع؟

ثم إذا بالموضوع يدور في خلدي على نحو مختلف..

هل تغير هيئته البدنية على هذه الوتيرة عقاب من الله؟

هل يحل عليه قدر من السخط والغضب بعد كل قلب يكسره ومال ينهبه؟

ربما.

نمت ليلتي وفي عقلي ألف سؤال وسؤال.. حتى استيقظت على تلفون من صديق مشترك.

وهالني ما عرفت!

السيدة التي نصب عليها عماد وكان منتشيا بمالها في جيبه بالأمس.. بعثت أربعة رجال غلاظ شداد مستأجرين من إحدى شركات التأمين التي توظف البلطجية والرياضيين ضخام الجثة وجنود الصاعقة السابقين المميزين فيما يسمى بخدمات «الأمن والتأمين والحراسة».

ثم قام الرجال بتقييده إلى عمود نور أمام مبنى الإذاعة التي يعمل بها، وتركت المهمة لثلاثة كلاب من فصيلة «ماستيف» لتنهش جسده بينما تصور المشهد بكاميرا هاتفها المحمول.

كان المقطع قد وجد طريقه لوسائل التواصل الاجتماعي

مصحوبًا بتعليق من رافع/ رافعة الفيديو، يحكي قصة عماد النصاب الذي تمرس في كسر قلوب النساء.

أحسست برعدة تسري في جسدي بأكمله.

لقد كنت آخر من جالس عمادًا.. وكنت أرى حديثه معي فخرًا ممزوجا برغبة في عقاب الذات.

ثم كأنه ساررني بخلاصة تجربته وبمفاتيحها الشيطانية قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

الآن أحس كما لو أن أحدهم ألقى في جعبتي كتاب «شمس المعارف» وقال لي: هذه النسخة ملكك أنت!

ياترى ماذا عساي أفعل بكتاب سحر مشهور، يتسابق على نسخته الأصلية القاصي والداني من المشغولين بأمور العفاريت والأعمال السفلية؟

في الأغلب سأحرقه أو أدفنه، لكن الخطورة كل الخطورة أن تحتفظ به لترجئ مصيره بعض الشيء.

فربما تراودك نفسك، أو تضطرك الظروف ـ أو ما تصنفه أنت حينها ـ بالظروف.. لاستخدامه.

مضى عماد.. وكأنما اختصني بلعنته.

وأنتم تعلمون أن أولئك الذين يبدءون حياتهم صعايدة وكاثوليك الأخلاق ومن عائلات محافظة، قد ـ وأقول قد ـ يتحولون لسخرية الأقدار.. لأشخاص من قبيل عماد الحراجي وتنويعاته الأخرى في هذا الكوكب.

أبو مصعب.. ليث السلفية

كانت لحظة فاصلة في حياة مصطفى عزمي، حين دلف إلى غرفة نوم/ عرين.. شيخه أبي مصعب الدلجموني.

فلأسباب كثيرة، تتراوح بين الفقهي والنفسي والتاريخي، لم يتخيل مصطفى أن يدخل غرفة نوم شيخه أبي مصعب (شيخ علوم الحديث المتمرس) والرجل الذي تتهاوى أمام منعته العلمية، كل التشكيكات والانتقادات الدينية التي يوجهها البعض للدعوة السلفية.

كان الشيخ أبو مصعب قصير القامة، عظيم الكرش، شديد بياض البشرة، يمشي كأنما يتدحرج.

لكن تلامذته (وكانوا يلقبونه بـ«ليث السلفية») عمدوا إلى التخفيف من فجيعة حقيقة أن شيخهم المبقلظ يتدحرج أكثر منه يمشي، فقال ـ أشدهم ذكاء ـ ليقطع دابر الأمر على الشيطان وروح الفكاهة معا: «شيخنا يمشي كجلمود صخر حطه السيل من علِ».

راقهم التشبيه، وبدا أكثر قدرة على تدارك الحقيقة الفانتازية التي يعايشونها مع ليث السلفية أبي مصعب الدلجموني.

أبو مصعب، هو كنيته، ومصعب هو ابنه الأكبر من زوجته الثانية، أما اسمه الأصلي فـ«شهبون»، وبلدته هي الدلجمون.. هي ليست بلدته على وجه الدقة، هي بلدة والدته التي زارها مرتين أو ثلاثًا في حياته، لكنه كان بحاجة إلى اختراع صلة بينه وبين مكان ما؛ كي يستقيم اسمه المستقبلي الذي سيحمل جبروت وكهنوت علمه.. (كنية+ اسم بلدة).

أسعفته الدلجمون، التي لا يعرفها على وجه الدقة، بالانتساب إليها، ولو من ناحية أمه، وتوج كنيته بابنه مصعب، بعد ثلاث بنات من زوجته الأولى.

مصطفى عزمي، أحد تلامذة الشيخ المخلصين، الذين يواظبون على حضور دروسه وحفظ نكاته ومواضع استشهاده الأثيرة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، بل حتى أحرص الحريصين على مداومة حضور الحلقات الخاصة التي يتحدث فيها عن آداب النكاح، بتمرس وصرامة، لا تفرقان كثيرا، عن صرامته في الرد على آراء المعتزلة وأصولهم الخمسة. كلامه عن القبلة وآدابها، لا يفرق كثيرا عن رده على الجهم بن صفوان.. صلابته في الحديث عن آداب ما قبل إتيان الزوجة، لا تقل عن صلابته في تكفير الجعد بن درهم.. بل حتى حديثه عن كيفية الاغتسال، يخرج منه بنفس صلادته في تدقيق المتون، وضبط العنعنات.. كان منيعا لأبعد حد!

رسم مصطفى عن الدلجموني صورة نبيلة، تليق بفارس ليل راهب نهار، ورغم أن خيالاته الجميلة كانت تتعثر كثيرا بسبب بنية

الدلجموني الجسدية فإن هذا لا يمنع من أنه كان يرى شيخه فوق عنان السماء.

فقد كان يتخيله دائما جنديّا مسلما يتصدى لجحافل التتار المقبلة ناحية الشام، إلا أن الخيال (كما لو أن هناك مخرجا عبثيّا يتحكم فيه) كان يسقط الشيخ الدلجموني من فوق فرسه بصورة كارتونية ضاحكة، فيتوقف على إثرها جنود التتار ليضحكوا على الدلجموني. ثم يقول قائد التتار، وقرناه المرعبان شامخان: انسحبوا من بلاد المسلمين.. انسحبووووووووا.

المهم: حين توعك الدلجموني بصورة حالت بينه وبين المسجد وبين إلقاء دروسه، قرر مصطفى أن يزور شيخه ويطمئن عليه دون أن يدري أنه سيشهد اللحظة الأكثر تركيبا وعمقا، في حياة كليهما معا.. التلميذ والشيخ.

فقد دخل مصطفى غرفة الشيخ، بدعوة من ابنه الأصغر حذيفة (٣ سنوات) الذي جذبه من يده وقال له بفصحى لا تليق بطفل في الثالثة من عمره: «أبي في غرفته..أبي في غرفته».

تخيل مصطفى أن دخول غرفة الشيخ هو من باب تباسطه مع تلامذته، وأنه سيجد شيخه مستلقيا على سريره يطالع «الصواعق المحرقة» لابن حجر، أو يقرأ على سبيل تزجية وقت الفراغ «الصوارم المهرقة في الرد على الصواعق المحرقة»، لكنه لم يتخيل أبدا المشهد الذي وقعت عليه عيناه.. فحين دخل الغرفة في غلطة ستكلف أم حذيفة طلقة بائنة، وجد شيخه يضحك بعمق، ويترجرج

أمامه كرشه المهولة، ويهتز من تحته السرير الذي ينوء بثقله البيِّن، بينما يشاهد الشيخ الدلجموني فيلم كارتون لبطوط وأبناء إخوته الثلاثة (الذين يشتهرون في النسخ العربية المترجمة من مجلة ميكي بالبطابيط الملاعين)!

كان الشيخ يضحك، من أعمق نقطة فيه، بينما يلف بطوط الفوطة على وسطه بعد الدش البارد الذي أخذه لتوه.. كانت بكبكة بطوط العصبية تتصاعد، وضحكات الشيخ تجلجل في سماء الحجرة، حتى لتوشك على هز الجدران من مكانها. في مشهد ربما فاق في كارتونيته، كارتونية ما يشاهده الدلجموني.

لم يخطر ببال مصطفى لحظتها حرمانية التلفاز، ولا عشرات الفتاوى والاستدلالات، ولا عدم جواز مشاهدة الرسوم المتحركة ومئات المآخذ التي دبجها في هذا الصدد العلماء، بقدر ما بدا مصدوما في فارس النهار راهب الليل، الذي لم يكن على سريره الكتاب الأيقونة «الصواعق المحرقة»، بل كانت هناك بقايا دجاجة مغدورة يبدو أن الدلجموني أجهز عليها في إطار محاولات التعافي من المرض.

خرج مصطفى مسرعا، محطم الوجدان، متخبط الداخل دون حتى أن يواجه شيخه بأي مما اعتمل بداخله..لكنه كان يدرك ـ الآن ـ حقيقتين فحسب: أنه يكره بطوطًا والتتار.

حدث وفاة سيدة عادية

ماتت اليوم سيدة عادية جدًّا. لن تقام لأجلها دعوات التأبين، ولن ينقلب تويتر ولا فيسبوك لأجلها رأسا على عقب.

لم تسمع حمزة نمرة ولا سعاد ماسي، ولم تشاهد عشرات الأفلام الأمريكية التي نحفظها عن ظهر قلب.

أقصى نزق مارسته.. شراء ووكمان بدائي في النصف الأول من التسعينيات، كانت تثبته في ملابسها البيتية أثناء غسيل الملابس. ولم تدرك بعدها من متع الدنيا شيئا، سوى الحلم المتحرق بشراء سيارة يقودها ابنها الأكبر الطالب بكلية الهندسة؛ كي تتحقق شعوريًّا، من حيث تكرار تجربة كاميليا وزوجها جون، حين اشتريا لابنهما الأكبر بيشوي، سيارة فيات بيضاء يوم التحق بكلية الطب في منتصف تسعينيات القرن الماضي.

كانت تتخيل اليوم الذي سيقلها فيه ابنها عمرو لمقر عملها بوزارة المالية، بينما هو في طريقه للكلية، لكنها ماتت قبل قرار شراء السيارة بيومين اثنين فقط.

تجاوب لحظي خفيف، بدا في ميل سريع لاهتزاز راقص مع

مقطع من موسيقى رحمانينوف، استرعى انتباهها، أثناء استغلاله كموسيقى تيتر أحد البرامج التلفزيونية..لكن أبعد من ذلك لم يكن لها أي اهتمام فني.

ماتت ميتة عادية جدًّا، لكن أحدا لم يأبه، ولن يلاحظ أن طموحها الأكبر الذي كانت تحتفظ به لنفسها سرّا: أن يراقصها أحد كما كانوا يرقصون في أفلام ليلى مراد.

«أحد» = شخص ما يرتدي بذلة ببيون.

ماتت.

قبل الوفاة بقليل

زميل المكتب غائب اليوم

الشمس،كالعادة، تغرق الجانب الذي أحتله

تبسط اتساعا ضوئيّا على ملابسي الصوفية الغامقة

الهدوء يفرض نفسه

الأشجار العجائز بجواري، تذكرني بأنها كانت تظلل أجيالا من قبلي، لكنهم قضوا نحبهم

الهدوء والسلام اللذان يحيطان بي

يدفعاني للاعتقاد بأن ساعتي حانت

سيسقط رأسي بهدوء على الكيبورد

وتظل تضغط على حرف بعينه، يتكرر آلاف المرات، إلى أن يكتشف أحد وفاتي

أتأمل جثماني

شعري مصفف اليوم على خلاف معتاده

أرتدي ملابس صوفية أنيقة نوعا ما

تعطرت بصورة مكثفة صباحا؛ لأسباب لا أدريها

التهمت ثلاث قطع بسبوسة قبل الوفاة بنصف ساعة

أدخلت السعادة على قلب ٣ من أحب الناس إليَّ

أحسست براحة عميقة

يالها من ميتة مسالمة جدًّا.. مثالية جدًّا.. لا تليق بمثلي.

شلة المسجد المريبة

حين ينتقل المرء للسكن في مكان جديد، قد يحس في نفسه «كريستوفر كولومبوس» صغيرًا يود أن يستكشف كل شيء. فيقبل في أسابيعه الأولى على تجريب كل الطرق المؤدية للمنزل، ويتعامل مع كل البقالين والمحال ويجرب كل الناس والاحتمالات تقريبا.

وكان على رأس أولوياتي أن أجرب الصلاة في هذا المسجد الضخم الذي يبعد عن البيت ثمانمائة متر فحسب.

طرازه من الخارج يشي بالملايين التي أنفقت عليه، واسم الأسرة الثرية الذي يحمله المسجد يزيد من فضولك لمعرفة كم مليونًا يمكن أن تعرف أنهم أنفقوها داخل المسجد، كما يمكن لمظهره أن ينبئك بأن عشرة ملايين على الأقل أُنفقت على خارجه.

صليت الجمعة فيه.. وللأمانة لم أركز في شيء مما قاله الخطيب الأزهري المحنك الذي كان يدرك كيف ينتقل من القرآن للحديث ومن الحديث للمأثورات ومن المأثورات للشعر ومن الشعر للمقولات الزائفة الذائعة التي ينزلها الناس منزلة الحكمة، ومن هذا الصنف قول هتلر: (أعطني جنديًّا مصريًّا و... و.... و...).

بعد الخطبة تناهى إلى مسمعي مأخذ لغوي على كلمة لم يشكلها الخطيب جيدا، اتجهت ببصري تجاه هذا الشخص الذي يلحظ الأخطاء اللغوية ويتحدث عنها.

فإذا هو رجل ستيني أنيق يتحدث مع ثلاثة رجال في مثل عمره أو يزيد قليلا. يتقاسمون سمتًا ما، لم يمكني تسميته بسهولة ولا الإمساك بتلابيبه.

لكن المعنى كان يدور في عقلي.

بادله الرجال الثلاثة ملاحظات أخرى على الخطبة، ثم تحركوا تجاه الخطيب وانتحوا به جانبًا ويبدو أنهم لقنوه درسًا قاسيًا، حتى لترى تقلب لونه من بعيد.

قلت لعل أربعتهم ذوو ثقافة دينية واسعة أو كانوا مدرسي لغة عربية أو شيء من هذا القبيل.

لكن مظهر الملابس فرط الأنيق كان يعكس مستوى من القدرة المالية، يفوق قدرة وكيل وزارة التعليم نفسه، بافتراض أنه رجل شريف ويؤدي الصلاة في المسجد ويهتم بالخطبة هو وزملاؤه الذين يشبهونه!

خرجت من المسجد وقد انزوى الموضوع بعض الشيء..

وفي الجمعة التالية تكرر الأمر نفسه مع خطيب آخر.. فذهبوا إليه وعصروه.

عدت للمسجد في صلاة المغرب، فإذا الرجال الثلاثة يتناقشون فيما يخص سجاد المسجد وإنارته.

ساعتها لم أستطع مقاومة ما يجري..

قررت التقرب إليهم والتعرف عليهم بمنتهى اللزاجة حتى أعرف من هؤلاء الرجال.

وفور أن اقتربت من دائرتهم أحسست شيئا ما يصدني ويعيدني إلى مكاني صاغرًا وقد استبد بي قلق وخوف غريبان.

كررت مجيئي للمسجد، وفي كل صلاة أختلس النظر إليهم وأراقب نقاشهم المحموم عقب كل صلاة.

والغريب أن أناقتهم لا تنطفئ، والأغرب أنه بعد كل صلاة هناك دومًا موضوع ما يناقشونه بخصوص المسجد.

لكن كيف لا يلاحظ عشرات ومئات المصلين أمر هؤلاء الأربعة، أم أنني خبلت تماما واخترعتهم وتوهمت كل هذه التفاصيل؟

كاد الجنون يعصف برأسي، وكدت أفقد الكثير من توازني. لكنني انتظرت حتى انتهت صلاة العشاء لأراقب كيف سيخرجون من المسجد.

وفور تسليمة الخروج من الصلاة.. كان كل عجوز من الأربعة يذهب إلى باب من أبواب المسجد الأربعة، في مشية فيها من الوقار والسرعة والقوة ما لا يقدر عليه رجل ستيني بحال من الأحوال ما لم يكن يتمتع بصحة ملاكم في العشرينيات من العمر.

وزعت نظري مرتبكا بين الأربعة، واخترت أقصرهم قامة كي أراقبه وأمشي وراءه.

كان يرتدي بول أوفر أسود ويفوح منه عطر فرنسي بديع.

تعقبت الرجل والليل بهدوء يبسط سطوته على أجواء ما بعد صلاة عشاء يوم جمعة في فصل الشتاء..

أخذ الرجل يمشي ويدخل في شوارع ويخرج من شوارع حتى إنه أنهكني وراءه، وأنا بدوري أكاد أجن من هذا الشيء الذي لا أفهمه.

ثم دخل سوبر ماركت ليشتري شيئا ما.. وقفت بانتظاره فلم يخرج حتى مضت عشر دقائق كاملة.

تحركت نحو السوبر ماركت متظاهرا أنني أسأل عن كروت شحن لهاتفي المحمول، فلم أجد العجوز المريب بالداخل!

أصبت بدوار خفيف.. ثم عدت أدراجي إلى المنزل.

وفي نفسي شك عظيم..

هل هم ملائكة من حراس المسجد؟ هل هم شياطين لتشتيتي عن الصلاة؟ هل هم اللهم احفظنا من الجن، أم أنني أهذي تماما وأن إرهاق العزال أفقدني اتزاني تماما؟

دق جرس المنزل، فتوجهت لفتح الباب متوقعًا أنه البواب الذي يطرق الباب كل نصف ساعة تقريبا لأجل سبب غير الآخر..

ولما فتحت الباب.. انخلع قلبي وكدت أقع.

رجل من الأربعة غرباء الأطـوار ينظر لي بعينين سوداوين تخترقان جدران الهرم الأكبر لو أرادت.. وفي يده طبق فاكهة..

ابتسم لي وقال: أنا اسمي الدكتور غريب.. جارك.. نورت العمارة..

«اتفضل».. قالها وناولني الطبق.. ثم مضى.. بينما أغمغم أنا بكلمات مشوشة تجاهد كي تبدو شكرا للرجل.

جلست على أقرب كرسي وفي يدي طبق الفاكهة والموضوع يزداد صعوبة.

الأستاذ (غريب) وهو غريب حقًّا.. يسكن معي في نفس العمارة!

كنت أراقب واحدًا منهم لأصل لأي شيء عن الأربعة فإذا أحد الأربعة يسكن أمامي أو فوقي.

قضمت قضمة من تفاحات الأستاذ غريب.. ثم سمعت صوت طرقات على الباب..

توجهت وفي نفسي هلع لا أنكره..

فإذا هو حامد البواب يسألني عن وصلة الطبق اللاقط (الدِّش) وهل تعمل بكفاءة، أم لا؟

سألت حامدًا: هو الأستاذ غريب ساكن هنا من إمتى؟

قال لي: الأستاذ غريب مين؟

وصفته له فقال لي: لا يوجد أحد بهذه المواصفات هنا في العمارة ولا العمارة المجاورة.

ابتلعت ريقي.. وقلت لحامد: بكرة نشوف موضوع الوصلة ده عشان عايز أنام..

وبينما أغلق الباب.. أحسست بمذاق التفاح يتغير في فمي.. ليزداد طعامة ولذاذة.

ثم أحسست دوارًا عاصفًا.. ثم فجأة سقطت على الأرض.

غمر شعاع الشمس وجهي ففتحت عيني.. لأجد نفسي ملقى على الأرض وفي يدي بقايا التفاحة لم تزل.

دخلت البلكونة ودخنت عشر سجائر دفعة واحدة..

وقررت أن أذهب للمسجد في صلاة الظهر.. وليكن ما يكون.. سأقتحم دائرتهم وأتكلم معهم وسأبحث عن الأستاذ غريب.

ذهبت قبل الصلاة بنصف ساعة، فإذا إمام المسجد ومقيم الشعائر يتممان الاطمئنان على وصلات الميكروفون وعلى مراوح المسجد ويضبطان الساعة ويغيران لها حجر البطارية.

توجهت إليهما وسألتهما عن الأسـرة الثرية التي أنشأت المسجد.. فقال لي الإمام: إن المسجد مبنيٌّ بناء على وصية أربعة إخوة.. كرس كل منهم ربع ثروته وقفا لبناء المسجد والاعتناء به..

فورًا سألته: عن أسماء الإخوة الأربعة..

رغم اندهاشه، توجه إلى دفتر خاص بالمسجد وبدا أنه يبحث عن ورقة بعينها، مسحها بعينه ثم تمتم.. إلى أن وصل للسطر الذي يحوي أسماء الإخوة ثم قال:

رأفت جلال الدهشان

مصطفى جلال الدهشان

غريب جلال الدهشان

جلال جلال الدهشان

لما قال اسم «غريب» انخلع قلبي..

هل كنت أرى أشباح الإخوة الأربعة، أم ماذا هو يا ربي؟

جاءت الصلاة، ولما سلمت منها.. وجدت العواجيز الأربعة يجتمعون عند العمود الذي يجمعهم دومًا..

تجاسرت واستجمعت شجاعتي كلها.. وذهبت إليهم..

ثم توجهت ببصري تحديدا تجاه الأستاذ «غريب».. ثم ألقيت السلام ودخلت لأسلم عليه تحديدا.. فاستأذن الثلاثة ومضوا مسرعين.. وبقيَ غريب الذي كان يتفحصني بعينه، لكنه يداري شيئا ما تحت ستار من الابتسام.

شكرته على طبق الفاكهة ثم سألته عن شقته لأنني أريد أن أرد له طبق الفاكهة بطبق حلوى.. لتوطيد أواصر المودة بيننا..

نظر إليَّ نظرة عميقة ثم قال: بص يا سيدي..

ثم فجأة سمعت صوت ارتطام عنيف.. فنظرت خلفي فإذا إحدى مراوح السقف قد وقعت من شاهق وأحدثت جلبة ضخمة.. وسط الذين وقعت بجوارهم.

وبينما يجري الناس على المكان لرؤية المروحة ولفحص إذا ما كان أحد قد تأذى.. قررت أن ألتفت للأستاذ غريب.. الذي كان قد اختفى في هذه الثواني العشر.. كأنما اختفى من الوجود نفسه.

حسنًا لقد كففت عن ضرب أخماس في أسداس.. سأعرف سر الأستاذ غريب ورفاقه وأيمن ما يكونون.

توجهت إلى السوبر ماركت الذي اختفى فيه أحدهم بالأمس.. دخلت على البائع وسألته عن مواصفات القصير الذي كنت أراقبه.. فقال لي: الباشمهندس جلال.. اه جالي إمبارح!

حضرتك عايز إيه بقى؟

- بدور عليه.. في حاجة وقعت منه في الجامع وعايز أديهاله..

- إزاي حضرتك؟

- هو إيه اللي ازاي؟

- الأستاذ جلال مسيحي

- مسيحي؟

- أيوه.. يمكن حضرتك اتلخبطت ولا حاجة في حد شبهه..

شكرت الرجل ومضيت مسرعا والدوار يعصف بعقلي.. دخلت شقتي واستلقيت على أقرب كرسي بينما لم أجد طبق الفاكهة الذي تركته مكانه منذ أعطانيه (غريب)..

ثم جاء حامد البواب ليطرق الباب ويطلب مني اختبار جودة صورة الريسيفر؛ لأنه غيَّر الوصلة أو فعل شيئا ما لا يسعفني تركيزي على التدقيق فيه.

فتحت التلفاز لأختبر جودة الصورة، فإذا القناة التي تعرض فيلمًا وثائقيًا يستعرض حياة رجل دين يهودي بولندي راحل..

ولما أمعنت النظر فإذا الرجل يشبه الرجل الثالث من رجالي الأربعة الغامضين!

إنه لا يشبهه بل هو على وجه اليقين!

قررت أن أتوقف تماما عن الذهاب إلى هذا المسجد والتوقف عن النبش في هذه القصة إلى أن أدخل قبري.

ولما استقر عزمي على هذا.. إذا بالطرقات تتوالى على الباب..

توجهت له وأنا ألعن حامدًا البواب والأبواب والأطباق اللاقطة والعزال وكل شيء.. فإذا الذي على الباب هو العجوز الرابع!

لم يترك الرجل دهشتي لتأخذ من وقته الكثير.. قال بلهجة حاسمة آمرة:

إنت بصيت في أحوال ٣.. لازم تكمل وتبص ورا الرابع.. اللي يبدأ شيء ينهيه.. وإلا!

أمسكته من تلابيبه.. وقلت له: إنتوا مين بالظبط، وعايزين مني أنا إيه؟؟؟

وإذا بي أمسك «الهواء».. «اللاشيء»..

بعد نوبة فزع استمرت ربع ساعة تقريبا.. ناديت على حامد البواب.. وقلت له:

فك العفش اللي اتنصب كله.. وجيب عربية نقل.. أنا مش هسكن هنا..

آذار

أنَّى لك أيها المصحح اللغوي أن تحاور النجمة الملول غريبة الأطوار التي تنكل بالإعلاميين من كل صنف، فتذهب إليها منتحلًا صفة صحفي!

ممثلة مخضرمة تقف أمام الكاميرات وعلى خشبات المسارح منذ الستينيات.. تاريخ عريض من الأفلام الرومانسية والاجتماعية والمسلسلات التاريخية وكلاسيكيات المسرح العالمي. تتحدر من عائلة ميسورة، تتحدث الإنجليزية والفرنسية ببراعة، على نحو جعلها ممثلة مصرية عالمية، فقد شاركت في عدة أفلام أجنبية مشهورة.

علاوة على ثقافة موسوعية متوحشة، تظهر على لسانها القويم وهي تؤدي مسرحيات شكسبير بترجمتها العربية الرصينة.

لماذا ابتلاني القدر بهذا الحوار؟ كيف يعقل به أن يلقي بي إلى أرض المعركة وأنا لتوي لم أفرق بين المسدس والبندقية؟

ودعت زملائي في قسم التصحيح اللغوي، وقد ودعوني بمشهد هزلي يمتلئ بالتهاني الحارة كما لو كنت عبدًا حصل

على حريته من سيدهم! عبيد يفرحون لصاحبهم الذي واتته فرصة العمر ليتحرر من ربقة القلم الأحمر الذي يضبط الفاعل والمفعول والخبر والنعت.

كيف لهؤلاء الصحفيين الجهلة أن يظنوا أنهم أرقى من المصححين، ثم كيف لهؤلاء المصححين الحمقى أن يستسلموا لمثل هذه الرؤية الفوقية المنحطة؟

لعل تحدر عدد منهم من محافظات قريبة من القاهرة، ودراستهم في كليات دار العلوم وفي قسم اللغة العربية بكلية الآداب (حيث لايشترط أي درجة في الثانوية العامة ولا أي شرط على الإطلاق حتى يتم إلحاقك بالقسم)، جعل لديهم شعورًا دفينًا بعدم التميز على الإطلاق. فضلا عن هذا الخوف اللعين من فقدان مصدر الدخل.

تدجين بائس يخسف بخيالك نحو حياة أفضل.. «يبطط» ـ كما الفطاطري ـ طموحاتك في الحياة.

أما أنا فلم أدرس اللغة العربية أصلًا بعد المرحلة الثانوية.. لقد كنت طالبًا بكلية الفنون الجميلة!

تركت الفنون كلها، واستعنت بتفوقي اللافت في اللغة العربية أثناء دراستي الإعدادية والثانوية؛ لأعمل في هذه السخرة اللغوية مع هؤلاء الرفاق الذين يشعرونني كما لو كنا عبيدًا في سوق بغداد في القرن الثاني الهجري.

تأكدت من أن ملابسي مكوية بعناية، صففت شعري، تعطرت،

جهزت أوراقي وقلمًا أزرق (انتهى عصر الأقلام الحمراء).. وكنت أطرق باب «أحلام فهمي» في التاسعة صباحًا بالضبط.

لدينا انطباع عام بأن النجوم ينامون متأخرا ويستيقظون متأخرًا.. إلا استثناءات قليلة؛ منها «أحلام فهمي».

علاقة رئيس التحرير آدم خيري القوية بكل رجال الدولة والمجتمع والمال والفن وفرت له اتفاقا مع أحلام فهمي بأن تجري جريدة «اليوم» معها حوارًا استثنائيًا بعد صيام منها عن الإدلاء بأي أحاديث صحفية منذ عشرين عامًا، وفي أول أيامي بقسم الفن تم «تدبيسي» في هذه البلوة؛ هذه السيدة الإعصار التي يشاع عنها الغضب لأي سبب والحدة في التعامل، وما يستتبع هذا من شيوع صفات «الكبر» و«غرابة الأطوار» عنها.

فتحت لي الباب بنفسها، قالت لي بوجه نصف باسم:

اتفضل ادخل..

حاولت تعريفها بنفسي:

أنا «حسن الشاطر» صحـــ...

أشارت بما يعني أنها مستوعبة من أكون، وبلغة جسد آمرة فهمت منها أنه عليَّ أن أدخل إلى حيث يتجه بنانها.

جلست على كنبة وثيرة، يبدو أنها قديمة الصنع لكنها جيدة، وبجواري آنية متعددة الأحجام بها زروع خضراء بهيجة. تستقبل أشعة الشمس التي تجتاح الشقة من النوافذ المفتوحة على مصارعها فكأنما تدب الحياة في أرجائها بكل قوة.

شقة في بناية عريقة في الزمالك، من هذا الطراز الذي يشعرك بأن هناك حياة غير التي نعرفها في بيوتنا العادية.

توقعت أن تطردني بعد ثلث ساعة حين تلحظ أن أسئلتي غير متجانسة وأنني صحفي مستجد. ثم انتابني هاجس دخيل على شخصيتي.. ماذا لو قال لها أحدهم إنني حتى الأمس كنت مصححًا لغويًّا؟ هل ستتوجه بسبابها نحوي وتفتح باب شقتها بطريقة درامية اعتادت على أدائها في المسلسلات؟

أي حظ تعيس ينتظرك يا حسن الشاطر مع هذه الغولة؟

لكن لماذا قفز هذا الهاجس إلى ذهني؟ هل أصبت بعدوى العبودية من زملائي المصححين وقد صدقت ولو لاشعوريًّا بأنني بالفعل «أقل» من صحفي؟

أشعلت أحلام سيجارة وقالت لي: اسأل.. اتفضل!

ـ دورك في فيلم «معنى الحياة» سنة ١٩٨٣ كان عن ست عايشة في قصر قديم ومبتسمحش لحد يدخلها ولا حتى يتواصل معاها.. مساحة الحقيقي للخيالي إيه في الدور ده؟ يعني المخرج اختارك عشان حس إن الشخصية دي شبهك في الحقيقة مثلا؟

اضطربت في جلستها قليلًا وكأنها أخذت تفكر في هذا الاحتمال.. ثم فجأة ودون مقدمات قالت: اسأل السؤال اللي بعده.

ارتبكت أنا.

هل تقر فنون الحوار الصحفي ما فعلته؟ أن أبدأ حواري من نقطة شخصية جدًّا وبسؤال عن الماضي لايعني أي قيمة خبرية عاجلة؟

ما الذي ألقى بك يا حسن الشاطر وأنت في الخامسة والعشرين بين أنياب هذه الغولة؟

ـ إيه أقرب دور لقلبك من كلاسيكيات المسرح العالمي اللي مثلتيها؟

أم هاملت.

ـ ليه اخترتِ تقومي بشخصية غزالة الشيبانية في مسلسل «عهد الحرب» رغم إن المخرج إسماعيل صفوت كان عنده تفضيل إنك تقومي بدور أم عبد الملك بن مروان؟

إسماعيل مخرج شاطر.. لكنه جاموسة فيما يتعلق بإحساسه بالشخصيات وقراية دوافعها.. الفنان الحقيقي بيقدر يقرا اللي ورا الورق.

مضت الأسئلة بيني وبينها سجالا وبدا أنها استحسنت ما أحاورها بخصوصه.

ثم طلبت مني أن أصحبها للمطبخ كي نكمل حديثنا، بينما تعد لنفسها فنجان قهوة، فضلا عن فنجان قهوة لي لأني ـ وفقا لتعبيرها: «تستاهل فنجان قهوة من إيدي يا ولد».

ساعتان ونصف الساعة وقد لان الإعصار بين يدي.

إنسانة لطيفة ورقيقة ومثقفة، في تقديري تعرضت لصدمات مكثفة في مقتبل عمرها دفعتها لافتعال ستار عدواني حوالي نفسها؛ كي لا تتورط في أحد ولايتورط أحد فيها.

مثل البشر الحساسين تماما الذين يفضلون العزلة، سواء بالتسامح الغاندي الانهزامي، أو بالعدوانية الاستباقية التي تحفظ لهم فرصة الابتعاد الآمن عن الناس وتجعل الآخرين يفكرون مرة ومرتين قبل أن يتواصلوا معهم.

مضت تودعني إلى باب الشقة وهي تقول لي بلهجة صادقة: ابقى اتصل عليَّ، وتعالَ في أي وقت نقعد سوا..

ثم استدركت: مش أي حد بيعرف يوصل للمنزلة دي يا صغنن إنت!

* * *

مضت السنة الأولى آمنة في مهنة الصحافة، اضطر وديع بركة رئيس قسم الفن الذي انتقلت إليه قبل عام، مع الوقت للتعامل معي على أنني حصان رابح تحت يديه، يدفعه لمضمار السباق متى أراد. وأخذ يضبط أخطائي ويوجهني بعض التوجيهات المهنية الاحترافية.

معظم من يبدءون مهنة الصحافة كما كنت ألحظ كمصحح، ثم فيما بعد حين شرعت في ممارستها، كان لديهم عيب قاتل، وهو الإغراق في الذاتية.. الكتابة من منظور ذاتي.. إدراك الكون بكل ما فيه من رؤية تتمركز حول الذات.. لغة شديدة النرجسية تعكس حسًّا شابًّا، لم تدهس الدنيا فيه هذا الشيء الذي حينما يندهس تدرك أنك نضجت، فتكف عن الحديث بذاتية، وتشرع في الكتابة وكأنك لست طرفًا على الإطلاق وكأن الكون يمضي هكذا من تلقاء نفسه وتتفاعل فيه العناصر بمعزل عن أي سبب يمت له بصلة.

يلح الأكاديميون والصحفيون المحترفون ورجال السياسة ورجال الأمن على صغار الممارسين بأن يتركوا ذواتهم عند باب العمل، وأن يتحدثوا عن الأمور بوصفها ذلك الغائب. والحاصل أن هذه الطريقة توفر الإحراج على ذاتك، وتجعل بينك وبين الانتقادات حجبا وسترا كثيفة، فيصبح المعترض أو الناقد أو الناقم متعرضًا لطرحك وليس لشخصك.. للنظرية وليس للمتكلم.. لهذا الشيء البعيد وليس لك.

حيلة بشرية ماكرة طورها بنو آدم على مدار القرون؛ للحفاظ على أنفسهم بعيدا عن سهام النقد والتجريح، ومع الوقت قالوا عنها: «الاحتراف» و«التجرد» و«الفصل» بين ما هو شخصي وماهو عام.

أتذكر الشيخ عبد الفضيل وهو يحفظنا القرآن صغارًا في المسجد، وبينما نردد وراءه: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا).. أخذ يضحك على نحو هستيري...حتى صمتنا جميعًا وقد انتابنا حيرة وفزع.

كان شيخا كفيفا كلاسيكيّا من طراز الشيوخ الذين يحفظون القرآن.

لمحت فيه في أكثر من موضع تعليقات لاذعة على الآيات التي كنا نحفظها، وكنت أقف مندهشا أمام التساؤلات التي لايبخل أن يسألها علانية أمامنا نحن الأطفال عن الله والكون والقرآن.

فيما بعد وحين كبرت وراجعت كلماته بيني وبين نفسي، اكتشفت أنه كان على الأرجح ملحدًا!

سنعود للشيخ عبد الفضيل مرة أخرى، ليس وقته الآن.

استدعاني بركة وطلب مني أن أكتب موضوعًا عن المطربة «آذار».

بعد لف ودوران تمكنت من استنتاج أنه يريد أن نلمعها، وهو يريد شخصًا مثلي كما يقولون في لغة الصحافة «كتيب» أي متمكن من الكتابة وإيراد الأسباب ونسج العلاقات بين الأفكار والأحداث.

كانت الهمهمات تسري في المكان عن العلاقات الفاسدة التي تجمع بركة بالمنتجين والمطربين والتي بموجبها يمكن أن يلمع هذا أو يحطم ذاك، وكله بمقابل.

حتى كان صحفيو الجورنال يتندرون بأنه «بِركة» وليس «بَرَكة».

قال بأنه رتب لي معها موعدًا مساء الاثنين في فندق «إيفوريا» الذي تقيم فيه بحيث أستفسر منها عما أريد.

وغمزني بلزوجته المعتادة: أيوه ياعم..

على محرك البحث جوجل كتبت اسمها، وأخذت أطالع صورها وكليباتها والمنشور عنها؛ ففهمت سر الغمزة التي أبداها لي بركة.

هي بصورة أو بأخرى خارقة الجمال.

لو كان صوتها شبيها بصوت علي الكسار وأرادت أن تحترف الطرب لاحترفته بسهولة. هذا الجمال الآسر يفتح الأبواب المغلقة؛ يحطم أقفالها، ينتزعها من أماكنها لو أراد.

يضمن لها منتجين وعاشقين وأثرياء تحت قدميها ثم يضمن

جمهورًا عريضًا يتلذذ بالنظر إلى هذا الجمال الذي لا تدري هل يعطل الحس الذكوري أن يجوس في مفاتنها بنظره، أم يدعم أسبابه في هذا.

تكبرني بثلاثة أعوام. هذا سيجعل من مشهد حواري لها أمرًا مربكًا بعض الشيء.. أو للأمانة كثيره.

في الصحافة، حين تحس بندية مع مصدرك، تضطرب الأمور قليلا. وهذا إذا تقاربتم في السن أو في القوة أو القدرة المتبادلة في التأثير على مصائر بعضكم البعض.

فبعض الصحفيين ـ على سبيل المثال ـ بمقدوره الإطاحة بوزير، أو إفساد فرحة فيلم جديد على ممثل كبير بانتقاده والتقليل من شأنه بصورة جارحة.. أو أي من هذه الأمور.. وهنا تنشأ الندية الاجتماعية بين الاثنين فتتحول العلاقة من الاحتراف «افتراضا».. إلى «الشخصنة».

أمام جناح اللوتس الذي تقيم فيه مطربتنا الجميلة.. كنت أقف بقميصي الأسود وبنطالي الكحلي، منتظرًا أن ينفتح الباب عن «آذار».

فتحت لي الباب شابة إفريقية الملامح استنتجت أنها خادمة «آذار».. دعتني للدخول، وأجلستني في انتظار النجمة التي تشغل العالم العربي كله ولا أدري أنا عنها شيئا.

سعيت طوال العام الماضي إلى كتابة رؤى نقدية وتقارير عن مهرجانات المسرح والأفلام الأجنبية؛ بحيث أتنصل من انفصالي عن الواقع بل ربما جهلي به.

أتذكر هُدى وجيه وهي تمسك بيدي للمرة الأولى ونحن في الفرقة الثالثة في كلية الفنون الجملية حين قالت لي:

بص كنت بتفرج إمبارح على عمرو خالد.. بالصدفة وأنا بقلب في التلفزيون.. وكان بيتكلم عن فرقة كده في أول الإسلام اسمها المعتزلة.. أنا معرفش هما بيؤمنوا بإيه.. بس أنا حاساك أوي منهم.. حسن الشاطر المعتزلي.. هههههه

إنت في عالم لوحدك.. مكبر دماغك وبرنس في نفسك.. عايش في فقاعة يا حسن.. منفصل عننا تماما ومش متواصل إلا بسلك كهربا موصله بعالمنا وبس.. أكتر من كده مش عايز تخطي عندنا..

كنت أقف مبتسما وممتنّا لمجرد أنني طرأت على بالها وأخذت تفكر فيَّ ونسجت سيناريوهات عني.

الحب يولد فيك شعورًا مروعًا بالضآلة حيال من تحب. من أنا حتى تحبني فلانة؟

حتى لو كانت فلانة هذه مخلوقة من القطران وأنت مخلوق من الألماس واللؤلؤ.

مازلتُ في الفقاعة يا هُدى. كنت أحسب أنك حين قلتِ لي إنك تحبينني فإنني سأصبح شخصا آخر للأبد.. ستنفثئ فقاعتي للأبد.. لكن يبدو أن الذين ولدوا وحولهم فقاعة، يظلون بها حتى يذهبوا للقبور. إنها تتجدد من تلقاء نفسها. الغُربة قدر.

جاءت آذار لتقطع خيط أفكاري.

حضور «خ ل ا ب».. شيء كاسح.. جمال حقيقي ليس مصطنعا، ليس للماكياج عليه يد بيضاء.

كأن «آذار» قد خلقها الله لتوها.. تحسها طازجة.. تحس بدنها كما لو كان يضج بالحياة.. جمال يعطل أفكار الشهوة بداخلك، ويعطل داخلك نفسه عن أي شيء.

سلمت عليَّ بطريقة لطيفة ومهذبة، وكأننا ندان أو صديقان أو زميلان، دون أن تشعرني بأنها أعلى مني مرتبة، رغم الشهرة الطاغية التي تملأ أركان حياتها.

بعد الساعة الأولى من الدردشة، بدا لي أنها لطيفة جدًّا، متواضعة ولا تفتعل شخصية غير التي هي عليها.

هل صرنا صديقيْن، أم أنني أتوهم؟

في لحظة بعينها يصبح الصحفي ومصدره صديقيْن، يتفاهمان ويدرك كل منهما دوافع الآخر في الحياة، يتقاربان، يتوحد الصحفي مع مصدره حتى يدافع عن مصالح مصدره دون أن يدري وذلك خطير، أو وهو يدري وهذا أخطر.

لكن هل للشاب الذابل هذا أن يحظى بـ«آذار» دونًا عن مخاليق الله من الساعين وراءها بمالهم وجاههم وسلطانهم؟

لماذا أفكر في هذا أصلا؟

هل أحببتها أو أنتوي كي أفكر بيني وبين نفسي في كل هذه الدراما السخيفة؟

(٤)

كتبت عن «آذار». لم أتكلف جهدًا يذكر، فقط كتبت انطباعاتي مشفوعة بتعليقات عابرة عن أغانيها وخياراتها في الحياة.

استقبلني بركة كما يستقبل مربي الخيول حصانه الرابح.. كما يعتني قائد كتيبة بجندي فائق المهارة في القنص.

كنت أقرب لقناص، يتركونه متمركزًا في برج حراسة مغلق، أو في نقطة مختبئة. يجلس طويلا مكتوم الأنفاس، يتابع هدفًا ثمينًا حتى يرديه برصاصة فتاكة.

لم يكونوا يطلبون مني شغلا كثيرا، لكن شغلًا نوعيًّا. كنت متروكا في حالي، أسمع همهمات عن غرابة أطواري وكثرة صمتي، لكن لا أحد يجرؤ على اقتحامي.

قال لي: بعد موضوع آذار.. «أصالة» و«أنغام» و«سميرة سعيد» اتصلوا بيَّ.. هيتجننوا من اللي اتكتب عنها. إنت بتغير طريق الفن وخريطته الإنتاجية..

إنت بتصنع التاريخ.. إنت الشاطر حسن مش حسن الشاطر! هههههههه (ضحكته الغليظة الفجة).

آذار عازماك على العشا النهاردة.. اتصلت بيَّ مساعدتها عشان حضرتك رافض تمشي بموبايل يا سيدي..

ماذا تريد مني آذار؟ أرادت شيئا يكتب عنها وكتبت، وعرضت وكيلة أعمالها في الأغلب رشوة ما على بركة وقبل، وطمحت في أثر بعينه وقد جرى.

ذهبت إلى العشاء في جناحها الفاخر بالفندق.

استقبلتني بترحاب بالغ، وأخذت تشكرني بامتنان حقيقي لما كتبته عنها.

إنت خلتني أحس إني بعرف نفسي من أول وجديد.. انطباعاتك ملاحظاتك الدقيقة.. كلامك عن التماثيل اللي حاطاها في الجناح بتاعي.. تحليلك ليَّ.. كل حاجة كانت مدهشة... أنا كنت حاسة نفسي عظيمة بزيادة!

بمزيج من تفهم سر إعجابها مع شيء من خجل.. كنت أراقب وجهها الفرح.

تعددت دعوات آذار لي على العشاء والغداء والإفطار والشاي والقهوة وعيد ميلادها وعيد تحرير سيناء وعيد النيروز وعيد ميلاد تيودور روزفلت..

بدا لي أنها تتلكك لتدعوني بصورة شبه يومية لأقابلها.

هل أحبتني آذار؟

هل هي تلك المغناطيسية التي تجذبنا نحو أولئك الذين يقولون عنا أشياء نحبها في أنفسنا نحو أولئك الذين يقولون عنا ما لن يقوله سواهم، أم أنه الحب، أم أنها تتسلى بشيء ما؟

لشخص مثلي، قلبه مفطور على هدى وجيه وأيامها، لا أبدو جاهزًا لأن أحب أو أُحب.

فضلا عن أن تحب أو تحبك هذه المطربة التي يجري وراءها أبناء الوطن العربي من المحيط للخليج وكأنها جمال عبد الناصر.

من منا يحب أن يصاحب البركان في فورته؟

سرت الهمهمات عن «صديق» آذار؛ الصحفي الشاب الذي يبدو أنه ظفر بقلبها أو بشيء ما فيها أو منها، وهي التي رفضت عرضًا للزواج من أمير خليجي ومن منتج لبناني كبير ومن رجل أعمال مصري في الخمسين من العمر.

آذار من مواليد شهر مارس، وقد احتار أبوها في تسميتها، فكل الأسماء متكررة، وبينما يمسك جريدة عربية من التي تورد التواريخ الميلادية بأسماء الشهور وفقا لنظامي التسمية الشائعين في العالم العربي، التفت إلى أن شهر مارس هو آذار؛ فسماها هذا الاسم الغريب.

وقد كان سببا في افتراض البعض أنها لبنانية أو أن لها أصولا إيرانية أو تركية أو ما شابه. وهي افتراضات جاهزة دوما وملعبة تجاه أي أنثى لا نفهم اسمها أو لا ندرك سر جمالها الأخاذ.

(٥)

خرجت من نادي الجزيرة، بعد ارتشاف قهوة الصباح مع «آذار» وقد ازددت حيرة على حيرتي فيما تريده مني.

لم أحتر فيما أريده منها؛ لأنني لا أدري ماذا أريد بالأساس.

ثم سمعت نداء من سيارة سوداء فاخرة: حسن.. تعالَ!

اقتربت منه: حضرتك تعرفني؟

ـ العقيد جعفر حلاوة.. أمن الدولة.. ياريت تركب معاي لو تكرمت.

ـ خير.. في حاجة؟

ـ ممكن نشرب قهوة سوا في مكتبي؟

ـ ده ليه حضرتك.. ممكن أفهم؟

ـ ياعم اعتبرني آذار! (وضحك بلزوجة).

ـ نعم يا افندم؟

ـ أرجو منتكلمش كتير وإنت واقف في الشارع وأنا في العربية ياريت تتفضل معاي.

ذهبنا إلى مكتبه في مبنى أمن الدولة بمصر الجديدة. أماكن كئيبة تثير شيئا بغيضا في النفوس.

مكتبة ولوحات وبرواز يحوي صورة لأطفال يبدو أنهم أبناؤه، و«تريد ميل» يبدو أنه يمارس عليه رياضة المشي والركض.

ـ تشرب إيه يا أبو علي؟

ـ قهوة مظبوط.

ضغط على زر وطلب قهوة مضبوطًا وعصير برتقال لنفسه.

ـ أنا سامع عنك كل خير يا أبو علي.. متابع شغلك.. واضح إنك هتكون ناقد فني استثنائي.. وإحنا من منظور وطني في وزارة الداخلية نحب نشوف الناس الشاطرة في كل مجال... وندعم

فرصها في الصعود الوظيفي والترقي.. ده في نهاية المطاف بيأثر إيجابا على شكل البلد كلها ومستوى كل شيء فيها..

سرحت في صورة حسني مبارك التي تعلو مكتبه؛ الرجل البليد الذي لايؤمن بالموهبة بمقدار ما يؤمن بالقدرة على تسيير الأمور، على «اللاخسارة» و«اللاحدث»..

هل هذا الرجل يمكن أن يلهم أو يأمر من هم دونه بالبحث عن المواهب أو دعمها؟

بذكاء ابن الطبقة المتوسطة أدركت أن ثمة تهديدًا قادمًا، وثمة عرضًا وثمة مفاوضة.

بذكاء بطة بلدي، يمكن أن تدرك أن كل هذا سيحدث.. ما شأن الطبقة المتوسطة وكليشيهات ذكاء وعبقرية أبنائها الذين يحملون مصابيح التنوير وكل هذه المحفوظات البالية؟

بلا دراما فارغة!

- أؤمرني جعفر بيه.

- الأمر لله وحده.. قولي إيه رأيك في صوت آذار؟

- ممكن ندخل في الموضوع مباشرة ونوفر على بعض اللف والدوران؟

نظر لي بغيظ واضح، فكيف لي أن أكسر الإيهام المتبادل الذي يفترض أن نُخضع كلينا أنفسنا له، حتى يقول بوضوح من بعد ترميز طويل، ما يريد. ثم أرد أنا كأنني مندهش؟ لكن لعلة ما يبدو أنه

امتص أسلوبي غير اللائق لمخاطبة كائن مقدس من كائنات وزارة الداخلية.

ـ في شخص مهم في البلد على وشك إنه يتمم خطوبته على آذار.. وإنت بتخرج معاها كتير وده مش كويس على سمعة بيت هيتبني.. أنا عارف إنك راجل مصري شهم وشاب أكيد يعني متدين وبتصلي وتصوم.. وفاهم يعني إيه حد يخطب ويتجوز واحدة ويبقى بيتقال عليها بتخرج «كتير» مع حد تاني.

نظرت له والصمت يهيمن على سكناتي وأنفاسي، ولسان حالي: أكمل كلامك..

ـ الراجل اللي هيتجوزها.. أو هيخطبها يعني.. صديق شخصي لحد مهم جدًّا جدًّا في الداخلية.. وأنا كنت في قعدة مشتركة سهرانين سوا.. وطلبت إني أتدخل وأزيل سوء الفهم ده لأني عارفك وبقرالك المقالات العظيمة اللي بتكتبها..

وقلت إني هخاطب نخوتك.. وإنت هتفهم بسرعة..

ماذا عساي أرد عليه؟ كيف أفند مزاعمه، أم كيف أرد على وقاحته وتهديده المبطن ووعده بتصعيدي وظيفيًّا لأنني موهوب أو ما شابه؟

أي حوار سينتهي إلى نقطة عبثية جدًّا، سأنفعل، سيزيد تهديده، سنقف في حارة سد، سيفقد هو جدار الإيهام الذي يختبئ خلفه ليقول إننا نتناقش كصديقيْن.. وسأفقد أنا شيئًا من الاحترام المفتعل الذي يحميني من أن يؤذيني فورا.. إيذاءً بالغا.

ـ أرجو تكون فهمتني يا حسن بك!

ـ إن شاء الله.

ـ هو إيه اللي إن شاء الله؟

ـ كل خير يعني.

أدرك هو الآخر أنه أربك حساباتي، وأن أي ضغط منه على مسار الحوار المقتضب من ناحيتي سينحو بكلينا لنقطة من الصراع الصفري.

انصرفت من عنده وبداخلي شعور غريب مزيج من الخوف والانقباض والغضب والإحساس بأنه ينبغي عليَّ أن أدافع عن حبي (ومن قال إنني أحبها أصلا؟!!) أو الدفاع عن حقها في حبي (ومن قال إنها تحبني أصلا؟!).. أو على الأقل الدفاع عن حقي في إقامة أي علاقة مع أي شخص.. أيًا كان شكلها ومضمونها.

عدت إلى المنزل في حوالي السادسة مساء، وكعادتي في الأزمات، نمت بعمق؛ نمت لكي لا أستيقظ؛ نمت لكي يتولى النوم بالنيابة عني تغيير العالم.

يقولون: «تبات نار تصبح رماد».. وهذا أمر غريب. ربما من قالها كان يدرك هذه القدرة الماحقة للزمن على افتراس أي شيء، قدرته على طحن أي حدث مهما كبر بين أضراسه.. حتى إنك لتنام سويعات معدودة فتستيقظ لتجد النار رمادًا.

هذا لأن الزمن تدخل بمجرد قدرته على التدخل.. بمجرد سريانه.. بمجرد حدوثه.

نمت كما القتلى، وفي النوم رأيت أنني أجلس في نادي الجزيرة أشرب القهوة مع هدى وجيه، ثم جاءني النادل مسرعًا ليخبرني أن وديع بركة ينتظرني في مقر أمن الدولة..

جريت إلى المقر.. جريت كثيرًا. حتى وجدت آذار تجلس على مقعد الضابط جعفر..وخلفه صورة لآدم خيري..

كانت آذار حزينة مني..

ـ بتشرب قهوة مع هدى؟ إنت مبتحبينيش يا حسن؟

استيقظت في العاشرة صباح اليوم التالي وذهبت للجورنال لأجد الدنيا مقلوبة رأسا على عقب.

ـ بركة: إنت فين؟

ـ خير.. (قلتها بملل)

ـ آذار هربت من مصر والدنيا كلها مش عارفة هي فين ولا إيه اللي حصل.. طلعت على بيروت ومنها على أوروبا ومحدش يعرف عنها حاجة.

وقفت مذهولا وصامتًا كأنني صنم.

ـ متعرفش هي فين؟ (قالها بخبث)

ـ هعرف منين؟

ـ مش إنت «صديقها» (قالها بغمز)

ـ ماقلتليش قبل ما تسافر.. معرفش.

سكت قليلا وكأنما أجال بذهنه عددًا من الأفكار..

اكتب عنها.. آخر خمسة لقاءات جمعتك بيها مثلا.. هواجسها شكل مزاجها.. تفضيلاتها في الأكل والشرب.. اكتب تفاصيل كتير.. البلد كلها عايزة تعرف في إيه!

(٦)

أسبوعان والبلد كله، لا يتحدث إلا عن آذار كما لو كانت هي التي تطعم الناس وتسقيهم وتحدد سياسات مصر الخارجية.

بالنسبة لي لم أعرف جيدًا ما الذي ينبغي أن أحسه: بالغضب، أم الغيرة، أم القلق عليها، أم الخديعة، أم الالتماس لها؟

لماذا طفرتِ في حياتي يا آذار أصلا؟

لماذا لمستُ المصباح فخرج الجني لي من دون الخلائق؟ ما كان أغنى الهوى عنا وأغنانا.

النظرات تتجه صوبي، كأنني كنت عشيقها، أو كأنني أعرف السر وأكتمه.. أو كأنني السبب.

لو أنكم تعلمون ماذا فعلت هدى في حسن الشاطر، لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا.

ولو أنكم عرفتم ماذا فعلت به آذار.. لواسيتموني.. لقد قتلتني.. هذا ما اكتشفته الآن، لقد «عودتني» عليها.. لقائها والجلوس معها والفضفضة حوالي كل شيء..

والاعتياد هذا شيء ابن كلب.. فتاك، يتفوق في قدرته على

التنكيل بك على ما عداه. هو أكبر من الحب، هو الذي يجعل الزوجين يعيشان معًا أربعين عامًا.

للاعتياد قوة قاهرة، تفوق لظى العشق في النفوس.

الاعتياد هو الروتين.. هو نجيب محفوظ الموظف الاعتيادي الذي يكتب بمواعيد وبصورة منظمة ومرتبة تجافي الصورة المرتسمة في أذهاننا عن الإبداع.

وفي نهاية المطاف، كل مبدعي مصر مطويون في النسيان، ونجيب محفوظ ـ مدفوعا بقوة الاعتياد والروتين ـ حصل على جائزة نوبل، ويهيمن من قبره علينا في الدنيا.

ما أقسى الاعتياد.

الله يلعنك يا آذار ويجعل ما فعلته بي شافعًا يوم ألقاه.

ألم يؤثر أن (من حب فعفَّ فكتم فمات.. مات شهيدا)؟

ذهبت للجورنال والتقطني آدم خيري على سلم الفيلا القديمة التي نتخذها مقرًّا للجريدة ودعاني لمكتبه.

آدم حلوف.. خنزير.. فاسد، لكن في لحظات بعينها تعتريه إنسانية مدهشة!

أنا عارف الضغط العصبي اللي انت فيه في الفترة الأخيرة بسبب موضوع آذار.. أنا عايز أريحك شوية.. شركة (كونكشن) بتاعت المحمول طلبت مني صحفي يسافر مع المنتخب للدنمارك عشان يكتب عن ماتش مصر وفرنسا من هناك..

إنت شاطر وحتى لو مبتفهمش في الكورة هتكتب حاجة حلوة..

أنا مش هاممني أوي تكتب حاجة من هناك.. المنتخب بتاعنا ده ينقط أساسا.. أنا عايزك تغير جو.. لكن لو كتبت من هناك واشتغلت صحافة كويس.. هيكون هايل..

هتروح في شارع شهاب عمارة ٩ هتقابل أماني بديع، دي منسقة الدعاية في (كونكشن) هي منتظراك..

أحسست بامتنان داخلي عميق لهذا الـ «آدم» الذي أعرف عنه أشياء منكرة، تكفي لرجمه بحجارة من سجيل..

سافرت الدنمارك للمرة الأولى في حياتي.. وفي مطار كوبنهاجن كان كل شيء هادئًا إلى حد الموات.

تجولت في طرقات البلدة التي لا يميزها سوى كاتب قصص الأطفال الأشهر هانز كريستيان أندرسن، وعالم الفيزياء نيلز بور، ومؤخرا لاعب الكرة مايكل لاودروب.

حاولت شراء المخبوزات المميزة، وراسلت الجريدة بقطعة صحفية سخيفة تحاول انتحال أدب الرحلات وتقارير المراسلين بعنوان (جولة في بلاد الفايكينج)..

وفي مخبز أندرسن بينما أتناول مخبوزة دنماركية مدهشة المذاق وتعبق رائحة القهوة أنفي، بعدما كانت رائحة الزفارة تملؤها مثلما تملأ أرجاء كوبنهاجن، على النحو الذي يذكرك بجملة هاملت الخالدة: هناك رائحة عفنة تأتي من الدنمارك!

بينما كنت مستغرقا في مخبوزتي وقهوتي قبل المباراة المرتقبة الليلة، وجدت يدًا تنقر على كتفي، كانت بالأحرى أظافر طويلة من يد لا أحتاج كثيرا من الجهد كي أميز أنها حريمي.

التفتُّ فإذا هي آذار!

قمت من مكاني مفزوعا وسكبت القهوة على نفسي، محاولا لملمة شتات الأفكار التي تعتمل بداخلي..

ثم بلا مبررات واضحة احتضنتها بعمق وبقوة.. وكأنني أفعل هذا منذ سنين... وكأنني مدرب على هذا منذ سنين.. وكأننا نحب بعضنا منذ سنين.

الأغرب أنها لم تردني.. وكأنها كانت تنتظر هذا وتتوقعه.

سحبتني من يدي إلى سيارة يقودها رجل دنماركي مسن، انطلق بنا إلى بيت في منطقة يبدو أنها قديمة ومسكونة بكل أنواع الأشباح التي استوطنت كوكب الأرض.

دخلنا المنزل، ثم انهارت في البكاء.

طلبت منها أن تهدأ وأن تحكي لي، كانت صامتة تماما. ثم قررت أن أرتكب فعلا أحمق.

الحُمق خاصية كامنة فينا، نحن من يستدعيها دوما في اللحظة التي لايجوز فيها الاستدعاء.

قلت لها، وقد كونت في ذهني سيناريو متخيلا لما يمكن أن يكون وراء قصة اختفائها المفاجئ:

في حد مهم في البلد عايز يتجوزك وضغط عليَّ بشكل ما.. وإنت سيبتِ البلد وهربتِ؟

لم يبدُ عليها أنها اهتمت لما قلت، سواء بتصديقه أو التصديق عليه أو نفيه.

قالت لي: قريت مقالك بتاع بلاد الفايكينج على موقع الجريدة.. وعرفت إنك هنا.

ثم أخذت تكفكف دموعها، وابتسمت فجأة:

ـ تيجي نشرب قهوة سوا زي ما كنا بنعمل في مصر؟

(زي ما كنا بنعمل في مصر).. تبدو هذه الجملة في هذا السياق لائقة على أي شيء عدا شرب القهوة.

ربما لائقة على شرب الويسكي... تصوير أفلام إباحية.. اختطاف أطفال من ذويهم.. أي شيء شرير، لكنها غير لائقة بصحفي يائس ومطربة هاربة وعاصمة أوروبية سخيفة، وأجواء أقرب ما تكون للقصص البوليسية.

أعدت لنا كوبي قهوة أمريكاني.. وأخذت تنظر لعيني طويلا.. ثم قالت:

ـ إنت أحسن شيء حصل في حياتي يا حسن!

هل جربت شعور احتضان قنبلة ذرية من قبل في لحظة الانفجار؟ هل كنت في قوم عاد وثمود حين أخذتهم غاشية العذاب؟ هل حضرت لحظة انشطار البحر ببني إسرائيل؟

كل هذه اللحظات تبدو لي أقل درامية مما قالته آذار.

كنت على وشك الرد عليها حتى رنَّ جرس الهاتف.. ردت عليه بجمل مقتضبة لم أستطع معها تمييز ما يجري على الطرف الآخر من المكالمة.

ثم طلبت مني المغادرة الآن، على أن يأخذني السائق الذي أقلَّنا لهذا البيت للفندق الذي أقيم به.

انفعلت وكنت على وشك الزعيق:

ـ في إيه بالظبط، وإنت هنا ليه ومين؟

وضعت يدها على فمي، ثم قبلت وجنتي اليمنى. فانطفأت نيراني جميعًا واتقدت روحي للأبد... اتقادة لن تخبو جذوتها.

قالت بهدوء يشوبه توسل:

امشِ دلوقتِ.

استكنت تماما لها:

هشوفك إزاي؟

ـ امشِ دلوقتِ.

خرجت للسائق المسن، أخذني للفندق الذي أريته اسمه في الورقة المطبوعة في جيبي والتي تحمل بيانات كل شيء في هذه العاصمة الباردة.

حضرت المباراة بالليل ولم كن قادرا على تمييز أي شيء، بينما بقية الجالية المصرية من مشجعين وصحفيين وممثلين توجه سبابا طوال الوقت.. على سبيل الاستحسان والاستهجان.

انتهت المباراة وبدت الملامح مكفهرة، فاستنتجت أننا منينا بهزيمة مؤلمة، نظرت ناحية شاشة النتيجة في الملعب فأشارت لثلاثة أهداف لفرنسا مقابل هدف لمصر.

هذه ليلة تبيت مصر فيها حزينة، وأبيت أنا حزينا على علتي التي لايدريها غيري.

لا أفهم في الكرة ولا أدري لماذا كانت المباراة مهمة، لكني أدرك أنني مكلوم كالجميع. وفجأة ودون مقدمات، انفجرت في بكاء مرير على باب الاستاد، فبكى معي مصريون آخرون.

وحرفيًّا.. كان كل منا يبكي على ليلاه.

انتظرت طيلة اثنتي عشرة ساعة فصلت نهاية المبارة عن موعد إقلاع طائرة القاهرة، على أمل أن تصل لي آذار، لكنها لم تتصل ولم ترسل سائقها العجوز ولم تبزغ من العدم كما الأساطير.

ثم فجأة ألح عليَّ هاجس غريب:

لماذا لم أطلب من آذار مسبقًا أن تغني لي؟ أن أسمع صوتها؟

لقد كنت أنا العربي الوحيد تقريبا الذي لا يميز على وجه الدقة صوت آذار، بل لايعلمه.

لكنني أنا العربي الوحيد، الآن، الذي يدرك معنى أن يحب الناس جميعًا آذار وأن تكتوي أنت بها منفردًا.

(٥)

في مطار القاهرة وأثناء عودتي من كوبنهاجن، تم توقيفي ثم اصطحابي لأحد مقار أمن الدولة..

دخل جعفر حلاوة إلى الغرفة البائسة التي كنت أنتظره فيها..

ـ آذار قالت لك إيه لما قابلتك هناك، وهي فين؟

إنت بتراقبني؟

ـ حسن.. عايزين ننجز.. الموضوع بقى أكبر مني ومنك.

إيه الصيغة القانونية اللي انت بتستجوبني بيها دلوقتِ؟

يا ابني الله يهديك ما تقوليش البُقين الحمضانين دول وتعملي نفسك تشي جيفارا!

ـ أنا بسأل عن السبب القانوني اللي أنا محجوز بسببه هنا..

إنت مش محجوز يا سيدي.. بتشرب معانا قهوة وبنعتذرلك إن اسمك متشابه مع اسم واحد مطلوب.. وأمن المطار جابك هنا عشان نتأكد إنك مش هو.. ارتحت؟

ـ وبتسألني ليه عن آذار، وعرفت منين إني قابلتها؟ إنت مالك بحياتي الشخصية؟

بص يا حسن.. لو على السجن أي حد في البلد دي ممكن يتسجن وهتلاقي أسباب قانونية تسجنه.. من غير ما حد يلفق له شيء.. ممكن تكون الكهربا اللي داخله بيتك مخالفة.. ممكن متكونش سددت فاتورة المياه.. أي حاجة في البلد دي ممكن تسجنك.. فاستهدى بالله وساعدني زي مانا بساعدك.

ـ بتساعدني؟

يا ابني والله إنت هنا في حمايتي.. بره هنا هتتجاب في حتة

الدبان الأزرق ما يعرفلهاش طريق جرة.. وهتنضرب وتتهان وتقول اللي حصل في الدنمارك.. وبعدين تترمي في الصحرا.. ولا هتعرف مين خطفك ولا مين ضربك ولا مين رماك.

ـ إنتوا بتهددوني؟

إحنا مين يا ابني.. أنا هنا بحميك من «اللي مش داخلية».

ـ ومتقبضوش عليهم ليه؟

يا ابني انجز.. إنت أهبل ولا صغير ولا بتصدق الحرية والديمقراطية والعدالة والقانون وكل العك ده؟

عايز إيه؟

آذار قالتلك إيه؟

ـ الأول.. مين اللي قالك إني قابلتها؟

زميل لك كان معاكم بيغطي الماتش.. وشافكم بالصدفة مع بعض بتركبوا عربية.. وبلغنا.

ـ معرفش هي رايحة فين.

يا ابني ساعدني.

ـ والله ما أعرف.. هي جت فجأة وسلمت عليَّ وروحت معاها بيت هناك وبعدين مشيت بسرعة.

مكان البيت أو عنوانه فين هناك؟

ـ هو أنا بقولك قابلتها في مصر الجديدة؟ دي كوبنهاجن هعرفها إزاي؟

خليك فاكر يا حسن إني حاولت أحميك.

شكرا يا جعفر بيه.

* * *

عدت لمنزلي وبداخلي ألف فكرة وألف هاجس.. مكثت في بيتي يومين لا أخرج ولا أقرأ الصحف ولا أشاهد التلفزيون.. فقط أقرأ الشعر.. لعل شيئا منه يداويني.

ثم قررت الذهاب للجريدة في اليوم الثالث.. ولما دخلت فوجئت بما حدث: آذار انتحرت.. أو نُحرت لا أحد يدري على وجه الدقة. وجدوها ميتة في شقة في باريس.

كان الجميع ينظر إليَّ ويترقب رد فعلي.. انهياري بكائي دموعي أي غمغمة أو هلفطة.. أي شيء..

كما لو كنت عشيقها الرسمي.. زوجها المسمى...خطيبها.. كما لو كنت صاحب التوكيل الحصري في قلب آذار وحكايتها.

هبط عليَّ جمود جليدي.. جلست على المكتب وأخذت أكتب شيئا ما كأني أمارس عملي اليومي، بينما يختلس الجميع النظر لي.

ثم عدت للبيت في نهاية اليوم.. انفجرت في بكاء مروع.. ثم هدأت فجأة.. ثم بكيت ثانية.. وهكذا دواليك.

أبكي كأنني لن أكف عن البكاء.. وأتوقف عن البكاء كأنني لن أبكي أبدا.

لم يواتني النوم..

في الفجر كتبت تفاصيل كل شيء.. كأنني أكتب قصة صحفية أو وصية أو إبراء ذمة أو رواية.. كل شيء منذ التقيت آذار أول مرة وحتى تلقيت خبر وفاتها..

وذهبت في الصباح ودخلت على آدم خيري مكتبه وسلمته المكتوب..

نظر لي بشفقة لا تتناسب مع خنزيريته.. لكنها متسقة مع إنسانيته الاستثنائية التي تخرج في أوقات غير متوقعة بالمرة، ثم أخذ يقرأ كل صفحة باهتمام بالغ.. حتى أنهى الورق.

ثم سألني:

ـ تحب ننشر؟

ـ هتقدر تنشر وتقول على اسم جعفر حلاوة واللي حصل كله؟

ـ لو منشرتش مابقاش رئيس تحرير.

سلمته الورق وغادرت الجريدة.. ذهبت إلى متحف أم كلثوم بالمنيل، وجلست في غرفه المعتمة وطرقاته خافتة الإضاءة وفي حديقته التي لايزورها أحد تقريبا.

في اليوم الثاني كانت القنبلة.. مانشيتات جريدة «اليوم»..

المبيعات كانت هائلة.. آدم خيري رئيس تحرير يدرك كيف يجر القاريء لمنطقته تماما..

زملائي في الجريدة (الذين هم ليسوا زملائي تماما) كانوا ينظرون إليَّ بشيء من الغبطة والحسد والخوف عليَّ.. لقد انفجر

بركان، لو ثبت فربما يطيح بوزير الداخلية من منصبه.. ومعه رئيس مباحث أمن الدولة..

* * *

خلال ستة أشهر تركت البلاد وشددت الرحال إلى لندن كي أعمل صحفيًّا في هيئة الإذاعة البريطانية BBC تاركًا خلفي جراحًا لم تضمد بعد، وكرها وخوفا من القاهرة وكل ما فيها.

صدمت سيارة مسرعة نجل آدم خيري.. وسط شبهات جنائية اعتبرها كثيرون انتقامًا مؤلمًا من رئيس التحرير الذي شاكس فيما لا تجوز المشاكسة فيه.

ومن ساعتها وآدم لا يخرج من منزله ولا يقابل أحدًا.

تولى وديع بركة رئاسة التحرير في سابقة صحفية مثيرة للتساؤلات. فرؤساء تحرير الصحف اليومية عادة ما يجيئون من أقسام الأخبار والتحقيقات والاقتصاد.. لا الفن ولا الرياضة.

أحسست أن انتقامًا قريبًا قد يطالني أنا الآخر.

قبلتني بي بي سي بعد اجتياز اختباراتها، وانتقلت للعيش في لندن، وفي قلبي خواء ضخم.

الضباب والإيقاع الجامد والكآبة والأسعار التي لم نعتد عليها مقابل هذه السلع.. كل هذا كان يشوشني بعض الشيء أو كثيره.

بعد عدة أشهر من العمل، توسم مديري اللبناني وسيم العركي أن ينقلني من كتابة الأخبار والقصص الصحفية للعمل وراء ميكروفون الإذاعة المهيب.

قال لي: صوتك جيد ومخارجك واضحة.. بقليل من التدريب يمكن أن تصبح مذيعًا جيد الفرص.

وبقليل من التدريب وبكثير من الاختبارات.. انتقلت بالفعل خلف ميكروفون بي بي سي الرهيب.

وبعد شهور جاء منتج المقابلات مع رئيس التحرير ليخبراني بأنني سأجري حوارًا مع مطربة لبنانية صاعدة.. يبدو أنها تثير جدلًا عربيًّا كبيرًا.

مجرد ذكر هذه التفاصيل أصابني بالصداع (مطربة) (صاعدة) (جدل)..

هل انتقلت من الكتابة للميكروفون كما انتقلت من التصحيح للصحافة؟

ثم هل يدفعني قطار الأقدار القاسي لتكرار نفس التفاصيل في كل شيء؟ أي «عك» هذا.. بل بالأحرى أي «مخطط» هذا؟

تحدثا كثيرا ثم تركا لي ملفًّا مطبوعًا بأهم المقالات والأخبار المنشورة عن المطربة اللبنانية..

بحثت عن اسمها كي أضعه على «جوجل» قبل قراءة هذا الملف.. فكان اسمها.. «نيسان».

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

قميص تكويه امرأتان

«ما إن قرأت مقالاته المتسمة بالغنى المعرفي والفصاحة العذبة وتماسك البنيان، حتى تساءلتُ: مَنْ هذا الكاتب الجميل المتين؟ وفرحتْ نفسي بمعرفة كونِه شابًّا لا يزال، وهمستْ روحي: الحياة لن تكف عن تجديد نفسها.

وها هو أحمد الدريني يكتب نصوصًا تنتحي بقوة نحو شمس القص، مفعمة بنسغ كل الميزات التي تجلَّت في مقالاته، ومغتنية بإضافات يُحتِّمها زمن باتَ فيها الواقع متجاوزًا للخيال التقليدي. كتابة تشير إلى جيل جديد، ينتصر على عدوانية مُزعجيه بأهم قوانين مصارعة «الأيكيدو» التي جاء ذكرها في قصة بديعة من قصص هذا الكتاب، حيث يقتنص المُدافِع أخطاء المهاجِم عندما يختلُّ توازن الأخير وهو يوجِّه ضرباته الغاشمة والغشيمة، فينتصر المدافع بأقل جهد ممكن، اقتصاد ذكي للطاقة، وفن جمالي في القتال. وأعتقد أن في هذه اللمحة مفتاحَ خزينة أسرار هذه القصص، لجيل يحسن الاقتحام في زمن الازدحام بأدوات عصره، ودون عبودية لشروط صنمية من أزمنة مضت، في كل شأن، حتى شأن الفن، فالقصة التي ازدهر فنُّها وانتشر بازدهار وانتشار الصَّحافة، لابد أن تتأثر بفنون الصحافة، وتؤثِّر في فنون الصحافة، لتنشئ نماذجَ إبداعية جديدة، بجماليات متجددة. ولمَ لا؟!».

د. محمد المخزنجي

أحمد الدريني؛ صحفي مصري، من مواليد عام ١٩٨٥، اشتُهرَ بكتابة مقالات الرأي والتحقيقات المطوَّلة، فاز بجائزة هيكل للصِّحافة العربية عن العام ٢٠١٧، كما فاز بجائزة نقابة الصحفيين المصريين عام ٢٠٠٩ عن تغطياته الخارجية للمِلفِّ السوداني. يعمل بصناعة الأفلام الوثائقية، وسبق أن صدرت له ثلاثة كتب: «أسطورة السيد دودي» «عائد من السماء» و«ثلاثية العرش». ينتمي الكتابان الأولان إلى أدب البوح والتدوين، أما الثالث عن الإسلاميين والرئيس والدولة العميقة.

9 789770 935408

دار الشروق
www.shorouk.com